وفيـق خنســه

# بيدر حـب

قصص

منشورات وزارة الثقافة ـ الهيئة العامة السورية للكتاب
2010

# بيــدر حب

قضى محمد جمعة أربعين عاماً موظّفاً بسيطاً في دمشق. وطوال تلك الأعــوام لم يشعر برغبة أكيدة في زيارة قريته. ومع ذلك كان يمـرّ بها ليـوم أو يـومين كـلّ صـيف. وفي كل مرّة كان يزور مكان البيدر الذي اختفى منذ زمن بعيد.

عنـدما أحيل محمد جمعة على التقاعد قـرّر الإقامة في مدينة اللاذقيـة. وبعد إقامته بشهور قليلـة، تعـوّد أن يشـارك في مـأتم أي متـوفى في قريتـه. وفي كـلّ مـرة كـان يمارس طقسه اللذيذ السري في زيـارة مكـان البيـدر. كـان في السادسة عشـرة من عمره. وكانت وجيهة ديّوب في الرابعة عشـرة. هو ابن شـيخ القرية الوحيـد. وهي ابنة مختار القرية. لم يعرف، ولم تعرف هي كيف تصادف دورهما معـاً بحراسة البيـدر ليلاً كـاملاً. بعد أحـاديث وأحـاديث جـاء وقت النـوم. كـان فراشه إلى جـانب فراشـها فـوق سـنابل القمح اليابسـة. مد يـده، ومـدت يـدها. رفع رأسـها ودسّ ذراعه اليمـنى تحتـه. رفعت رأسه ودسّت ذراعها اليسرى تحته. طوقها بيده اليسرى، وطوقته بيدها اليمنى. وذهبا في نوم دافئ لذيذ.

لم يلمسها فيما بعد. ولم تلمسه فيما بعد. سافر إلى دمشق بحثاً عن عمــل، وبقيت في القرية. لم يتزوّج محمد جمعة، ولم يفكّر عميقـاً بـالزواج. لم تـتزوّج وجيهة ديـوّب ولم تفكّر جدياً بـالزواج. كانا يلتقيـان طـوال أربعين عامـاً مصـادفة، يتبـادلان التحيـات والأسـئلة الراجفة المـترددة، ويمضي كل منهما في طريقـه. في السـبعين من عمـره الآن يتوكأ محمد جمعة على عصــا. وفي الثامنة والســتين من عمرها الآن تتوكأ وجيهة ديــوب على عصــا. كــان قد خــرج من خيمة العــزاء. لمحته من شــبّاك غرفة العــزاء؛ فخرجت. التقيا في منتصف المسـافة. هي تتحـدّث مع خالتها العجـوز. وهو يتحـدّث مع خاله العجوز. سلّمت عليـه. وردّ عليهـا. ابتسـمت. فابتسـم. لـوّحت بعصـاها بلا هـدف. فلوّح بعصاه بلا هدف. قالت له:

ـ هل تذكر البيدر وليلة البيدر؟

غصّ بالكلام، وحوّل نظراته عنها كي لا يبكي. وسألها بدوره:

ـ أما زلت تذكرين يا وجيهة؟ أجابته ضاحكة:

ـ وكيف لي أن أنسى يا محمد؟!

أدار ظهره، ومضى؛ فأدارت ظهرها ومضت.

# ذاكرة من تعب

ها هو ذا رجل في الأربعين من عمره. يرتدي ثياباً أنيقة، وحذاء فاخراً، يقف أمام البنك المركزي في دمشق. نقل حقيبة يده السمسونايت من اليد اليمنى إلى اليسرى وهو يتأمل الساحة أمامه. حاول أن يتذكّر اسمها ففشل، وظن لبرهة أنه مرهق للغاية، فهو لا يعرف إلى أين سيذهب، ولا يعرف لماذا يقف في هذا المكان الذي يجهل اسمه. كما أنه لا يذكر اسم المدينة التي يقف في إحدى ساحاتها، والأغرب من ذلك كله أنه لا يتذكّر من هو! ولا يتذكّر حتى اسمه! قدّر في داخله أن له بيتاً، وربما أسرة، وأهلاً، وأصدقاء، ولكنه عجز أن يتذكّر أي اسم، أو أي عنوان، أو أي شيء آخر. بقي واقفاً حائراً لا يعرف ماذا يفعل، ولا إلى أين يتجه، وتمنى أن تكون حالة عابرة، وتمر. وتمسّك بأمله منتظراً أن يستعيد ذاكرته، ويتذكّر اسم المدينة، والساحة، واسمه، وأهله، وأصدقاءه. تعب من الوقوف فأخذ يتمشّى متمهّلاً على الرصيف، منتظراً المعجزة، وفجأة سمع رنين جرس هاتف نقّال، واكتشف أن الجهاز في جيب سترته، فأخرجه ووضعه على أذنه قائلاً: من يبكي؟ لكنه لم يسمع رداً من أحد! فقدّر في نفسه أن شخصاً ما يعرفه، ويعرف أنه نسي اسمه يتصل به باكياً ورائياً لحاله! وهكذا تصرّف مع عشرات المرات التي رن فيها الهاتف، فقد كان يسأل مستغرباً، ومتعاطفاً من أعماقه: من يبكي؟ ولم يحدث أن سأل مرة واحدة: من المتكلّم؟ وأخيراً غضب من الجهاز، ومن رنينه، ومن المتصلين. ورماه أمامه على الرصيف ثم راح يضربه بكعب حذائه حتى تفتت إلى عشرات القطع! وبلا أي شعور بالندم أو الخسارة، تابع سيره... بلا هدف.

# أذنان من رمل

تحـركت القافلة من مركز الانطلاق في حلب. وكـان صـفوان الحمـود قد جلس إلى النافذة في المقعد الثامن إلى اليمين. دار المعـاون على الركـاب وجمع البطاقـات، ثم دار ووزّع عبوات صغيرة من المياه المعدنية، وبعدها وزّع قطع الكراميلا. كانت الساعة تتقدم بعد السابعة مساء، وصـفوان يـراقب الشاشة منتظـراً أن يضع معـاون السـائق شريط الفيلم الذي سيعرضه خلال الرحلة، اعتدل في مقعده وراح يراقب الركـاب في الجهة الثانية. كـان رجلان يجلسـان خلف السـائق تمامـاً وامرأتـان تجلسـان وراءهمـا. لاحظ صـفوان الحمـود شـيئاً يلفت الانتبـاه في الـراكب قـرب الممر فقد كـانت أذنـاه أطول مما يجب، وبعد لحظات شاهده يحرك فكه الأسفل من اليمين إلى اليسـار، ومع الحركة لاحظ أن أذنه اليمــنى تتحــرك وعند حركته إلى الجهة اليمــنى تحــركت أذنه اليسرى، وحين استقرّ في مكانه، وسكن، حرّك الراكب الجالس قرب الممر أذنيه معاً إلى الأمـام والخلـف. وفي اللحظة نفسـها التفت إلى اليمين، والتقت نظراته مباشـرة بنظرات صفوان الحمود، فابتسم له، ورفع يده اليمنى، وحرك أصابعها في تحيّة بلهـاء، وبين الدهشة والارتبــاك والخجل هــزّ صــفوان رأسه معــبراً عن ردّ التحيــة. بعد ذلك تشاغل بالنظر إلى النافذة. ولكن الفضـول دفعه بإلحـاح لمراقبة أذني الـراكب. ومـرّة ومرّة وأخرى رأى بـأم عينه الأذنـان تتحركـان بتلقائية طبيعية كما يشـاء صـاحبها. وبعد أقل من ساعة لاحظ ما يشبه هوائي الراديو يصعد من طرفي الأذنين العلــويين. عندئذ فرك عينه وقرر في داخله أنه مرهق. وربما كان بحاجة لزيـارة عيـادة نفسـية، ولـذلك صمم أن يستغني عن مشاهدة فيلم الرحلة، وأن ينام طوال الطريق.

حين وصـلت الرحلة إلى محطتها الأخـيرة في دمشــق، كـان صـفوان الحمـود أول النازلين ولكنه قبل أن يجتاز المحطة باتجاه الشارع كان ذاك الـراكب قد حـاذاه، وراح يحرك أذنيه إلى الوراء والخلف. ثم ابتسم لصفوان، ورفع يده اليمنى، وحـرك أصـابعها في تحية محايدة ولكنها بلهاء. وبين الدهشة والارتباك والخجل هز صفوان رأسه معبراً عن رد التحية. ومضى كل منهما في طريقه.

لم يكن صفوان يحمل حقيبة ولا أية أغراض، ومع ذلك قـرر أن يـركب سـيارة أجـرة صغيرة، وأن ينام في فندق "زهرة الشـرق" في المرجـة. فهو بطبعه خجـول ومـتردد، ولـذلك لا يحتمل أن يسـتمر ضـيفاً ليليـاً على أصـدقائه كلما زار دمشـق. هـذه المـرة سيتجول قليلاً في شارع الصالحية، ويشرب القهـوة في مقهى الروضـة، وبعـدها يحلها الحلّال. غير أنه ما استطاع أن يطرد أذني الراكب من تفكيره. وحتى عندما انهمك في استحضار صورة حبيبته كـانت أذنا الرجل تتحركـان أمـام عينيـه. لقد أرهقه وضـعه بعد خروجه من السجن. حاول أن يجد عملاً، أي عمـل، لكنه عجـز. وبعد شـهور من سـكنه مع والديه العجوزين بدأ الشعور بالخجل من نفسه يتضخم. حتى أنه قرر أن يرفض أي مبلغ منهما مهما كـان صـغيراً أو كبـيراً، وشـعر بمـرارة لأن المعاهد الخاصة في حلب رفضت أن تعطيه أي ساعات بحجة أنها تريد أسماء لامعة ذات شـهرة تجـذب الطلاب. أما هو فقد ترك التعليم منذ خمسة عشر عاماً، ولا يعرفه أحد من الجيل الجديـد. مـرة اشتغل عاملاً في ورشة بناء لمدة أسبوع، ولكن جسمه النحيل خذله. ومــرة توسط له أحد معارفه للعمل في ورشة بناء فلم يستطع الاستمرار. وها هو ذا أخيراً يقرر البحث عن فرصة عمل في دمشــق، ولن يعـود إلى حلب قبل أن يــؤمن مصــدراً لمصــروفه اليومي على الأقل.

لم ينتبه صفوان لمرور الوقت، فهو لا يحمل سـاعة أصـلاً، وبعد أن دفع ثمن فنجـان القهوة وهم بالنهوض إلى الفندق رأى ذلك الـراكب نفسه يعـبر أمامـه، ويهز أذنيه إلى

الأمام والخلف، ثم يبتسم ويرفع يده اليمنى ويحرك أصـابعها في تحية مـاكرة مغيظـة، ويمضي بصورة طبيعية عبر الباب إلى الشارع.

في صباح اليوم التالي استيقظ صفوان على صوت نقرات خفيفة على بـاب غرفتـه، وعندما فتح رأى شخصاً أنيقاً في عقده الثالث كما قـدر يقف أمـام البـاب، وبلا أسـئلة قال له الرجل وهو يبتسم: أستاذ صفوان الحمـود عليك أن تراجع الـدائرة قبل الظهـر، وأدار ظهره ومضى بلا إيضاحات ولا تحية. فرك صـفوان عينيه واتجه إلى المغاسل وبلا عجلـة، قضى حاجته وغسل وجهه وارتـدى ملابسـه، وخـرج من الفنـدق باتجـاه سـاحة المرجة، ولأنه لا يتناول طعام الإفطار عادة فقد تـابع سـيره حـتى مقهى الهافانـا، نظر إلى الطاولات، فلم ير أحداً يعرفه، عندئذ تابع باتجاه الصالحية، وعلى مهل كـان يتأمل واجهـات المحلات ويـدقق في القمصـان الرجالية وأسـعارها، وكلما صـادفه بـائع على الطريق كان يقف قربه لدقائق وكأنه يكتشف اكتشافاً جـديراً بالاهتمـام. اجتاحته موجة سرور عابرة حين تذكر وجه حبيبته "وداد"، زميلته في الجامعة، ورغم أنها تـزوجت منذ ستة عشر عاماً بعيد سجنه بقليل، إلا أنه ما زال يحبها وأكثر من ذلك فإنه ليس غاضباً منها. ولقد أكد لنفسه مـرات ومـرات أن ما فعلته هو عين الصـواب. لقد تـدمرت حياته فما الفائدة من تدمير حياتها أيضاً؟!

وهو الآن يتمنى لو تحدث معجزة ويجدها جالسة على طاولة في الركن الداخلي من مقهى الروضة. ضحك من أحلامه ومن سذاجتها وهو يجتـاز العتبة ويـدخل إلى الصـالة. كان صفوان الحمـود يشـعر بمتعة نـادرة وهو يحتسي قهوته متوقعـاً أن يـدخل في أية لحظة أحد أصدقائه أو معارفه، ولأنه لا يملك ساعة يد لم ينتبه لمرور الوقت، فقد تعود في سني سجنه أن تكرّ الـدقائق والسـاعات والأيـام والشـهور والسـنوات متشـابهة لا تستحق أن يبذل جهد في إحصائها.

وها هو ذا يستيقظ من نشوته الساذجة على صوت الرجل الذي نقر بـاب غرفته في فندق"زهرة الشـرق" هـذا الصـباح: أسـتاذ صـفوان قلت لك من قبـل، عليك أن تراجع الدائرة اليوم قبل الظهر.

فهم صفوان بلا نقاش أن الوقت ليس في صالحه، فغادر المقهى على التـو، ثم اتجه إلى الدائرة التي يحفظ الطريق إليها عن ظهر قلب.

عندما اجتاز صـفوان البوابة الكبـيرة اسـتقبله شـاب بثيـاب رسـمية بحفـاوة كبـيرة، وقاده إلى صالة انتظار المـدعوين، وغـاب قليلاً ليعـود إلى الغرفة رقم «17». وما إن دخل حـــتى تفاجأ بـــالراكب نفسه يجلس وراء طاولة فـــاخرة، تغطيها هواتف عديـــدة، وحاملة أقلام وبعض التحف والأوراق والصور، وعلى الفور رحب به واقفاً، وصافحه، ثم أشار له أن يسلم على السيدة التي وقفت لحظة عبوره عتبة الصالة، لقد كانت حبيبته وداد بشحمها ولحمها، شد يده على يدها مذهولاً، ولم يتسـاءل عن سـبب وجودها هنـا، والآن في وقت استدعائه. ولم يخطر على باله أية علاقة بين حضورها وحضـوره، كـان مستغرقاً بنشوة ملامسة يدها، وما كان ليهتم بأي شيء آخر في الدنيا كلها.

قال الراكب الذي كان يجلس أمس قرب الممر: لا وقت لدينا لنضيعه في المشـاعر الرومانســية، أريد أن أعــرض عليكمــاً معــاً شــريطاً مصــوراً قصــيراً، ثم كبس زراً، فانطفـأت الأضـواء، وظهـرت شاشة على طـول الجـدار المقابـل. وعلى الفـور ظهر صفوان الحمود على مقعد في الحافلة الـتي أقلته من حلب إلى دمشـق. رأى صـفوان نفسه وهو يـراقب أذني الـراكب. ورأى خـواطره الداخلية مكتوبة على شـريط أسـفل الشاشة. ثم رأى نفسه يـذهب في النـوم. وفجـأة ظهـرت وداد ولقطة بعد لقطة كـان يعريها وحين ظهرت شامة على فخذها اليمـنى شـدت وداد ثوبها فـوق ركبتهـا. وما إن وصل العــرض إلى وركها اليســرى وظهــرت الشــامة الغريبة حــتى أطــرقت وداد،

وانخرطت في بكاء صامت. صفوان الآن يخلع بلطف حمالة الثديين، فتبرز شـامة ثالثة تحت حلمتها اليمـنى تمامـاً. ويتـوالى الشـريط وهو يصـور العاشق يلتهم بنعومة جسد حبيبته التي لم يشـاهدها منذ سـتة عشر عامـاً. وعنـدما همد الجسـدان تمامـاً أضيئت الغرفة، بينما كانت وداد ما زالت مطرقة، ومستسلمة لبكاء صامت. وبلا مقدمات قـال صــاحب الأذنين اللــتين تحركتا أمس للخلف والأمــام للســيدة وداد، كما ســماها، إن مقابلتها انتهت، وإنها تستطيع مغادرة الغرفة على الفور.

دعا الراكب "صفوان" أن يجلس، وطلب له قهوة، وقدم له سيجاراً فـاخراً، وأشـعل له السيجار بنفسه، وابتسم له ثم رفع يـده اليمـنى، وحـرك أصـابعه دون أن يـوحي له بأنه يلقي عليه التحية، ثم دار حول الطاولة وقـال: يا سـيد صـفوان، يا أسـتاذ صـفوان الدنيا تمشي وأنت واقف في مكانك منذ ولادتـك، هل تـرى هـذه الأشـرطة هنالك على الرف؟ إنها صور ملونة لكل دقيقة عشتها منذ أول نشاط تخريبي لك ضد النظام!

هل تريد أن ترى أحلامك وأوهامك ومعتقـداتك مصـورة؟ الأمر ليس صـعباً كما تظن إننا نسجل كل شيء بالعدسة، نعم بالعدسة. كل شيء، كل شيء بالصـوت والصـورة. ولكن الحق عليك وليس علينا. كل ما تحلم به في متناول يدك إذا أردت. اليوم أخـبرت الســـيدة "وداد" بأنك هنا في دمشـــق. فـــأعلنت عن رغبتها الجارفة في أن تـــراك. بالمناسبة هي مطلقة وبلا أولاد. وهي ترغب في الزواج منك من كل قلبها. أنا أحضرتها إلى هنا عمـداً. لقد رأيتك أمس وعــرفت كم تعـاني من وحـدتك ومن حاجاتك للحب والجسد والعشق. حسناً أنت لا تريد أن تتكلم أبداً. نحن نعرف أنك لم تمارس نشــاطاً سياســياً بعد خروجك من الســجن، ولكنك أيضـــاً لم تخـــدم نفسك بالتعـــاون معنـــا. أصدقاؤك يثقون بك إلى أبعد الحدود، ويصـفونك بالصـادق الصـامت الصـلب، وهـذا له ثمن كبير عندنا. نحن نقدر السيدة "وداد" للغاية، وعندما طلبت منا مساعدتك سـألناها كيف تريد أن نسـاعدك، طلبت منا أن نلغي ملفك السياسي وأن نمنحك جـواز سـفر. وقالت إنها ستتكفل بالباقي. حسناً بدورنا ليس عندنا ضغينة ضدك؛ بل أكـثر من ذلـك، نحن مسـتعدون لنشـطب ملفك بكاملـه، ومسـتعدون لأن نمنحك جـواز سـفر نظاميـاً؛ ولكن بشرط وحيد وبسيط هو أن تتزوج من السيدة "وداد"، وخير البر عاجله لك ولنـا، واليوم قبل الغد؛ أنت مصر على الصمت. هل تريد أن تزورهـا؟ كيـف؟ أنا أرتب اللقـاء فـوراً. توقف الـراكب الـذي يحـرك أذنيه عن الكلام وعـاد إلى كرسـيه خلف الطاولة وكبس عدة أرقام على جهـاز الهـاتف وقـال: سـيدة "وداد" بعد قليل سـيزورك السـيد صـفوان. سأرسـله بسـيارتي الخاصة لأنه لا يعـرف العنـوان، أنا أثق بك وأتـرك لك ما تبقى. أعاد الراكب الذي يحرك أذنيه السماعة إلى مكانها، ثم نهض ببطء، ومد يده إلى صـفوان الحمـود قـائلاً: لقد انتهت مقابلتـك، وتسـتطيع أن تغـادر على الفـور، وسـتجد سيارتي وسائقي بانتظارك أمام البوابة الكبيرة. وقبل أن يغلق صـفوان الحمـود البـاب خلفه التفت إلى الوراء، فرأى ذلك الراكب يحرك أذنيه إلى الوراء والأمـام ويصـعد من طرفيهما العلويين ما يشبه الهوائي، فشعر أنه مرهق، وأن ما يراه ليس خداعاً بصــرياً على الإطلاق.

# امرأة على الدرج

كان عـدنان أبو زيد يحب أن يتمشى في حارته "هيجاشي ماتشـي". وغالبـاً ما كـان يقضي ساعات يتأمّل الحدائق اليابانية المنزلية. وفي مـرات عديـدة كـان يـدخل ليقف في دغل الخيزران الصغير في الحديقة التقليدية لمنزل قديم مجاور لمنزله. ولكنه بـدأ يوسّع دائرة مشاويره بعد شهرين من وصـوله إلى طوكيـو، وراح يكتشف مدينة محطة "كيتشي جوجي" حياً بعد آخر. غير أنه افتقد إثـارة الحـديث مع النـاس، وإثـارة معرفة مشـاكلهم، فقد كـان يشـعر بانقبـاض مبهم وهو يتفحص اللطف الطـافي في وجـوه الآخرين، والصمت الحذر الذي يقابلون به الأجانب.

كان عدنان أبو زيد يعتقد منذ شبابه الأول أن خلف كل وجه حكاية مريـرة مـا، وربما حكاية مرحة خفيفة. حتى أن جدته كـانت تقـول له سـاخرة: أنت "بطين" لا تشـبع من الحكايات. ثم تـدعو له أن يشـفيه الله من سـحر الحكايـة. وعنـدما كـبر أقنع نفسه أن الإنسان حكاية دائمة، وأن الكرة الأرضية كلها حكاية، والمجرات، والكـون، والشـمس، والقمر، والشجرة، والحجـر، والطـير حكايـات تبحث عن مسـتمع. وحين افتقد الحكاية الناطقة في حيه لجأ إلى المطاعم الشعبية، ومحطات القطار. كان يحلو له أن يشتري بطاقة دخول إلى محطة "كيتشي جـوجي"، ويجلس على مقعد فـارغ. يشـرب القهـوة ويراقب دخول الركاب، وخروجهم من أبواب القطار المكتظ. وفي مـرات عديـدة كـان يـدوّن بعض الحكايـات الـتي يفترضـها في حقيبة هـذه السـيدة، أو ذاك الطـالب الـذي يميّـزه لباسه المدرسي الرسـمي. ورغم ذلك لم يتمكن من إشـباع فضـوله للمزيد من الحكايات.

في الثـالث عشر من كـانون الثـاني عـام ألفين خـرج عـدنان من منزله في الحادية عشرة تماماً. ولأنه لن يذهب إلى عمله في يوم الإثنين هـذا فقد قـرر أن يتسـكّع على هواه، وبلا أي تخطيط اتجه متمهلاً إلى محطة القطـار، واشـترى بطاقـة، وعـبر البوابة الآلية، وصعد الدرج ببطء. تلهّى قليلاً بمشاهدة واجهة مطعم "الرامن " الصـغير ودقق في أشـكال الأطبـاق، وأسـعارها. ثم أدار ظهـره، وتـابع نحو الـدرج الأيسر ليصـعد إلى رصيف القطار. لم يكن الصـاعدون أمامه كثـيرين، كالعـادة في مثل هـذا الـوقت، ولم يكن ينتظر أن يتلصص على أفخاذ النسـاء تحت الأثـواب القصـيرة. كـان يصـعد الـدرج فارغـاً من أية رغبة محـددة، وفجـأة رأى سـيدة تتعثّـر، وتهـوي إلى الخلـف. وقبل أن تسقط بكل طولها على الدرج كان قد وصل إليها، واحتضـنها بقـوة. ولأنها كـانت تهـوي من الأعلى فقد انشمر ثوبها عن ساقيها تماماً، وظهر ستر عفافها الأبيض أمام الجميع. وبعد أن وقفت تماماً التقط الحقيبة، وأحاطها بذراعه اليمنى ممسكاً بها بيده اليسـرى وقادها بهـدوء إلى أقـرب مقعد فـارغ. ودون أن يقـول كلمة اتجه إلى آلة المشـروبات الساخنة، واشترى قهـوة لهـا، ولـه. كـانت السـيدة الثلاثينية كما قـدّر عمرها قد بـدأت تستعيد سيطرتها على نفسها، فأخذت تشكره بأرفع صيغ الشكر باللغة اليابانية. تبـادل الاثنان عبارات رسمية مهذّبة، والبطاقات الشخصية، وتواعدا على الاتصال. فكّر عدنان أبو زيد أكـثر من مـرة أن يتصل بها خلال شـهر، لكنه كـان يطـرد المشـروع بسـرعة وارتباك. ما يذكره أنها شابة طويلة، يضفي عليها شـعرها الأسـود الطويل فتنة خاصـة. وكثيراً ما استغرب أن يصادف يابانية بهذا الطول، وهـذا الامتلاء الخفيـف. وفي مـرات عديـدة كـان يشـعر بالغضب منها لأنها لم تتصل كما وعـدت. ومع مـرور الـوقت كـاد ينسـاها، غـير أن شـكل سـاقيها العـاريتين انحفر في خياله أقـوى فـأقوى. وزاره في أحلامه بلا انقطاع. تلك الساقان كانتا مشكلة بالنسبة لـه، وخاصة الفخذ اليسـرى. أقنع

عــدنان نفسه أنها كــانت مصــادفة عــابرة، وأن عليه أن ينســاها تمامــاً، وأن يتجاهل عنوانها، ورقم هاتفها، وبريدها الإلكتروني، وحتى اسمها الجميل "ياما كاؤرو".

بكّرت أزهار الكرز بالتفتح في ذلك الربيع، وبدأت تنشر فتنتها مع الأسبوع الأخير من آذار. كان يعرف أن كل ياباني سيزور حدائق أشجار الكرز الـتي تزهر ولا تثمـر، وكـان يعرف أن تلك الشجرة مغروسة في روح كل مواطن في تلك الجزر النائية. ولأنه أحبها على نحو عميق وغــامض، قــرر أن يقضي أوقــات فراغه في النهــار مســتمتعاً بمنظر أزهار الكرز وهي تتقدّم يوماً بعد يوم. وبعد أن دار على الحدائق المشهورة في طوكيو كلها، اختار يوم الإثنين لزيارة حديقة مدينته "إنو كاشيرا كوإن" وقد اختــار موعد زيارته عن عمد في أوّل أيام الأسـبوع حيث يكـون النـاس في أعمـالهم، وتكـون الحديقة أقل ازدحامــاً. فهو يعــرف أن الشــباب خاصة يقصــدونها في نهاية الأســبوع من كل أنحــاء طوكيو. وفي الحادية عشرة صباحاً خرج من منزله، وقصد "إنو كاشيرا كوإن".

لم يهتم عدنان بالقوارب الصغيرة التي كانت تملأ البحيرة الاصـطناعية، ولا بأسـراب السمك الأحمر، أو الأزرق التي تتجمع على الشاطئ، وتحت الجسور منتظـرة الطعـام من الزائــرين. فقد كــان اهتمامه مركــزاً على الأشــجار العملاقــة، وعلى تشــكيلات أغصانها، وكثافة الأزهار التي تتفتح. اشترى علبة قهوة ساخنة، وراح يشـربها ببطء وهو يتمشّى في الجهة اليمنى من الحديقة، وفجأة سمع اسمه بلكنة يابانية واضـحة. التفت حواليه فلم ير أحداً يعرفه، وفي اللحظة التي أراد أن يتابع بها سيره، سمع اسمه مـرة ثانيــة، كـانت سـيدة طويلة بجسـمها الممتلئ قليلاً تجلس على مقعد خشـبي، وبيـدها كيس طعام للبط والحمام، ولقد توهّم للوهلة الأولى أنها تمثـال يغطيه الحمـام تمامـاً. وحين نهضت واتجهت نحوه جاهد في أن يتذكّرها، وفشـل، ولكن باغتته بخلع نظّارتهـا، فصرخ بالعربية، وبلا إرادة منه: أنت؟

كانت تبتسم إبتسامة خجولة مثـيرة. سلّمت عليـه، وسـألته إن كـان قد تـذكّرها، ثم شــكرته مــرّة أخــرى للطفه في مســاعدتها عنــدما هــوت على درج محطة "كيتشي جوجي". استغرب عدنان من أين جاءته تلك الردود المتقنة باللغة اليابانيــة، واسـتغرب أكثر الحرارة التي عبّر عنها. بقيا واقفين لدقائق سـيطر فيها الارتبـاك والـتردد، فحـزم أمره ودعاها لمشروب في مطعم الحديقة الصغير.

كان عـدنان يجاهد ليخفف من ضـغط رغبته المجنونة في أن يـرى سـاقيها عـاريتين وخاصة فخـذها اليسـرى، بغتة طلبت منه أن يغـيرا المكـان ودعته للـذهاب إلى مطعم صيني. في محطة "ناكـانو"؛ كـان في داخله سـعيداً بـدعوتها رغم أنه أظهر تكـبراً في غير موضعه. سألته وهما في القطار: هل تعدني أن تسـاعدني؟ سـأكون صـريحة، لقد قــررت منذ الصـباح البــاكر أن أشـرب اليــوم حــتى الانطفــاء وكنت على يقين أنــني سأصادف صـديقاً يسـاعدني إذا فقـدت السـيطرة على نفسي تمامـاً، فهل تعـدني أن تســاعدني؟ أكد لها بحــرارة أنها تســتطيع أن تعتمد عليه اليــوم وفي أي يــوم قــادم، وأضاف: عندما تكـونين حزينـة، أو عنـدما تحتـاجين إلى كتف ترتـاحين عليها وتسـندك؛ اتصــلي بي، وســأكون إلى جانبك في أي وقت. عقّبت وهي تبتســم: اتفقنــا، قضــيا ساعتين في المطعم الصيني،أكلا البط والقريدس والخضـار المسـلوقة وشـربا شـراباً صـينياً، كـانت أحاديثهما عامة وجديـة، تكلما عن الطعـام اليابـاني والحيـاة في طوكيو والتعليم والأدب ولم يذكر أحد منهما حادثة درج المحطة. ولكن عدنان كـان يـدرك أنها تتحاشى عمداً الحـديث عنهـا، ويـدرك أن شـيئاً في داخله يغلي، ورغبته تتـأجج في أن يرى ساقيها عاريتين وخاصة فخذها اليسرى.

انتقلا معاً إلى محطة شـينجوكو المحطة الأكـثر شـهرة في اليابـان كلها بعد محطة طوكيو ومن مشرب إلى آخر ومن مطعم إلى آخر قضيا ست سـاعات متواصـلة، كـان يتعمد أن يشرب قليلاً لكي يبقى متماسكاً لكي يساعدها إذا احتاجت، ولقد أدرك مبكـراً

أنها ستنطفئ عاجلاً أم آجلاً. كان وجهها يغادر صـفرته الخفيفة ويكتسي حمـرة فاقعـة، وبدأت حركاتها تثقل وجملها تتعثر وتتقطع وعـدنان يسـتغل كل فرصة سـانحة ليلامس شـعرها، ويمس فخذ سـاقها اليسـرى، غـير أن بنطالها كـان سـوء حظ يلاحقه في اللحظات الحرجة.

طلبت منه أن يذهبا إلى حديقة فردّها بلطف لأن الدخول إلى الحدائق العامة ممنوع بعد الثامنة مساء، ولأنها خطرة في الليل على أية حال. وفجـأة سـألته هل تـرغب في أن تقبلني؟ ابتسم وتردد في الإجابة، ودون أن تعطيه الوقت للكلام قالت: إذن قبلـني. طبع قبلة خفيفة على شفتيها، واعتدل في كرسيه، وقال لها: علينا أن نمشى في زحام الشوارع المحيطة بالمحطة، أحاط كتفيها بيده اليمنى وأمسك بها باليسـرى تمامـاً كما فعل معها على درج محطة عنـدما هـوت، وبـدورها وضـعت كفها اليسـرى فـوق كفه والتحمت به. قالت بالإنكليزية: أنا أهرب دائماً وأنت الآن تهرب؟ أعرف أنك فكرت بي كما فكرت بك، وأعـرف أنك تـرغب في معرفة حكاية سـاقي اليسـرى. لم يقل شـيئاً. نظرت في عينيه، وتابعت: منذ التقيتك وأنت تروغ عن رغبتك في الكلام، تريدني وتأبى أن تعلن، وأنا أيضاً الآن على الأقل، احتاج إليك، احتاج لأن أراك عارياً كما خلقك اللـه، فربما أجد ندبة عميقة في مكان ما من جسدك كالندبة العميقة التي رأيتها في فخـذي اليسرى. في الحقيقة أرغب في أن أرى ثلاث ندبات على جسـدك. في أمـاكن متفرقة تماماً كالتي على جسدي وإذا تحقق ما أريـده سأسـألك عمن فعل بك هـذا؟ وأنت حر في أن تجيبني بصراحة أو أن تلفق لي حكاية كما تشاء.

قال لها مقاطعاً: ما رأيك أن تذهبي إلى بيتي؟ وعلى الفور ردت: بشـرط أن تعـدني ألا تغتصبني وألا تؤذيني. أنت وعدت أن تساعدني، اتفقنا؟ أجاب: اتفقنا.

عندما وصلا إلى الـبيت كـانت كخيط صـوف مبلـل، ومع ذلك طـالبت بـأن يقـدم لها مشروباً قوياً. غير أنه أعد قهوة، وصب فنجاناً لها وفنجاناً له، ثم شـغل جهـاز التدفئـة، وجلس قبالتها تماماً. استأذنته بغتة أن تخلع بنطالها إن كان لا يزعجه الأمر فهي كـانت معتادة أن تجلس مع صديقها بلا بنطال. استغل طلبها وسألها إن كان عندها صـديق أم لا. فنفت بصورة قاطعة، وأضافت بغضب واضح: لماذا تسـأل؟ أنت تعـرف أنه لا يمكن أن يكون عندي صديق؟ عندئذ كانت قد خلعت بنطالها فصرخت وهي تشـير إلى الندبة على فخذها اليسرى: انظر لقد رأيتها عندما هـويت على درج محطة "كيتشي جـوجي" أنا واثقة أنك رأيتها، كل الناس والحجارة والهواء، كل الدنيا رأت الندبة هذه. أنا واثقـة. كل الـدنيا رأت كم هي واسـعة وعميقة وبشـعة. وبعد ذلك تسـألني بـبرود هل عنـدك صـديق؟ هل تريد أن أريك النـدبتين الأخـريين؟ قل لي: هل تريـد؟ نعم، رجل لا يـزال يعيش هنا كواني بآلة حادة؛ رجل مثلك أو مثل أبي أو صديقي، وقد يكون واحداً منكم. ومع الكلمة الأخـيرة كـانت تبكي بكـاء يخترقه أنين يقطع القلب. نهض عـدنان وجلس إلى جانبها واحتضنها بهدوء مستغرباً أن رغبته قد انطفأت ولم تعد السـاقان العاريتـان تثيران فيه أية رغبة جنسية، حتى أنه لم ينتبه للون ستر عفافها الأبيض. مد يده ومسّـد الندبة الواسعة العميقة غطاها براحة كفه، وبعد لحظات انحنى وقبلها بحرارة، ثم أمال رأس الفتاة على كتفه وأخذ يمسّد شعرها دون أن يلتفت لمرور الوقت، أحس بأنها قد غفت تمامـاً فحملها إلى سـريره وغطاها بهـدوء، ورجع إلى الصـالون. كـان يشـعر أنه فـارغ، وأن عليه أن يلفق كما يشـاء حكاية عن ندبة على فخذ امـرأة فاتنة هـوت على درج المحطة.

# الطعنـــة

ما إن رزق الشـيخ حـاكم الجاسم بمولـود ذكر من زوجته الثانية حـتى أصـبح القـوم ينادونه بأبي جاسم. كان الشيخ قد رزق منذ عشرين عاماً بابنه محمد، ولكن أمه كانت "عبدة" سوداء من عبيـده الكثـيرين. لم يكن الشـيخ حـاكم الجاسم يرضى بـأن يـتزوّج "ريحانة" زواجاً رسـمياً، ومع ذلك فقد تبـنى ابنـه، وغمـره بكل ما يسـتطيع من الحب. ولكنه فشل في إقنــاع وجهــاء العشــيرة بمكانة ابنه الوحيــد. فقد كــانوا يجاملونه في حضـوره، ويسـمونه بنـوع من الحـذر بـالأمير. وكـان يـدرك أنهم يرفضـون أن يرثه في إمارة العشيرة الكبيرة. ما انقطع الشيخ حاكم قط عن معاشرة "ريحانة" كزوجــة، وقد أعطاها من ممتلكاته، وأعطاها، وأعطاها. ولم يترك ما يمكن أن يمنح لحبيبة إلا ومنحه لريحانة ماعدا الاعتراف بها زوجة شرعية.

في كل مناسـبة كـان زعمـاء العشـيرة يقـترحون على شـيخهم الـزواج من ابنة أحد رؤساء العشائر التي تملأ الباديـة. وكـان يسـوِّف، ويسـوِّف، ويـردّهم بـاحترام ولطـف، ولكنهم في المرة الأخيرة، منذ عامين، صارحوه وجهاً لوجه: إنهم لن يقبلــوا ابن الأمَــةِ رئيساً للعشيرة، ولا بد من زواجه لإنجاب رئيس معترف به. سدّت المسالك كلها أمــام الأمــير الكبــير، ولم يكن أمامه إلا أن يرضخ ويــتزوّج "شمســة" ابنة رئيس العشــيرة الأقرب نسباً لآل الضالع. وبعد عامين أنجبت مولوداً ذكـراً منحه اسم "جاسـم". وعلى الفور أصبح أبا جاسم، ونسي الجميع أنه بقي عشرين عاماً "أبا محمد"!

يوماً بعد يوم أصبح محمد مهملاً حتى من أقرب أصـدقائه. ولم ينفعه تـدليل والــده، والثنــاء على ذكائه وشــجاعته ووســامته. لقد تيقّن بصــورة لا لبس فيها أنه ابن الأمة الفاتنة "ريحانة".

بعد شهور من الخيبة، والألم، والشعور بالمهانة، حزم محمد بن الشيخ حاكم الجاسم أمره وقرر أن يقتل واحداً من ثلاثة: أمّه، أو أباه، أو أخاه! كان قلقه الداخلي ينصب على الاختيار، فمرّة كان يرى أن أمه مسؤولة عن مصيره المرير، ومرّة أخرى كان يركّز غضبه وحقده على والده، ومرّة ثالثة كان يرى أن أخاه الجديد هو الشرّ بعينه.

كان على محمد أن يتحرر من الزلزال الذي حرمه الراحة والنوم وحتى الطعام. وكان يشعر أن المرارة تكبر في داخله، وتكبر. وأن الشعور بالإهانة تجاوز حدود السيطرة، ورغم أنه لم يتوصل إلى اختيار الضحية على نحو يروي عطشه للانتقام إلا أنه اختار أخاه محمداً، وقرر أن ينفِّذ ما عزم عليه بعد أن تذهب العشيرة في النوم العميق.

عندما دخل محمد إلى الخيمة الكبيرة ميّز فراش والده، وفــراش زوجتــه، وابنها إلى جانبه. شدّ يده على خنجره المسموم واندفع كالصاعقة العاتية نحو أخيــه، غــير أنّه في اللحظة الأخيرة وجد نفسه يطعن والده بوحشية تكفي لقتل الناس جميعاً.

# رجل من سعال

أدار خالد عزو مفتاح الباب خمس مرات، ثم علّقه في مكانه، وعندما انتبه لنفسه أدرك أنها المرة الأولى التي يقفل بابه بكل هذا الحرص، وأنه للمرة الأولى منذ خمسين عاماً يقف وحيداً في البيت الفسيح. لقد انتهت مراسيم التعزية ورجع أولاده إلى أماكن عملهم، وإقامتهم، في الحسكة، ودمشق، وحمص. مر أسبوع الحزن الثقيل عليه بسرعة. وكان يلوم نفسه وهو يشعر بنوع غريب من الغبطة المربكة وهو يراقب أحفاده يملؤون البيت بحركتهم، وصخبهم. وفي كل صباح كان حريصاً أن يستيقظ مبكراً، وأن يشارك في طعام الإفطار. كان يراقب ولديه وبنته وهم يتناولون طعامهم بصمت، فيتدخل بكلمات مشوشة مواسياً، وملحاً عليهم أن يتحملوا رحيل والدتهم، لأن الله أعطى، والله أخذ. أسبوع وهو منهمك في استقبال المعزين وتوديعهم صباح مساء. لكنه ما أحس بالتعب، فقد كانت الحركة التي تملأ البيت الفسيح تخفف عنه هول صدمته برحيل رفيقة عمره الفاضلة. خمسون عاماً لم يرفع صوته عليها، ولم ترفع صوتها عليه. كانا في كل يوم جديد يتعاملان وكأنهما في صبيحة يوم عرسهما. فلماذا تركته ورحلت؟ كيف لم تفكّر بأنه سيبقى وحيداً في البيت الفسيح؟ لا شك أنها كانت متيقنة من بقائه وحيداً وأنه لن يسكن مع أي من أولاده رغم إلحاحهم عليه. هي تعرفه، وتعرف طباعه. على الأقل تدرك مدى خجله من الآخرين، حتى من أقرب الناس إليه، فكيف له أن يسكن في بيت ابنه، وهو لا يكاد يعرف زوجته إلا في المناسبات الرسمية. ورغم أن صهره رجل طيب وكريم ويظهر له احتراماً خاصاً فإنه صهر على أي حال. انتبه خالد عزّو لنفسه، واستغرب وقفته الطويلة وراء الباب، فجرّ قدميه جرّاً نحو المطبخ، وأعد قهوته لأول مرة منذ خمسين عاماً. ثم حمل الصينية إلى الصالون الفسيح، وجلس وحيداً مع فنجانه، وسجائره، وصمت الليل.

كان نومه خفيفاً متقطعاً، فما إن يغفو قليلاً حتى تظهر له أم مصطفى في وضع جديد. مرة وهي في ثوب زفافها أمام المرآة تنتظر حركته. ومرة وهي تصلي. وأخرى وهي تلد ابنهما البكر مصطفى. ولكن ما أشعره بالخجل من نفسه أنه رآها أكثر من مرة وهو يمارس الحب معها عراة كما خلقهما الله. فجأة استيقظ مع شعاع الفجر على صوت سعال غريب. فلأول مرة يسمع ضجيجاً قوياً على هذا النحو، وفي هذا الوقت، وقدّر أن جاره في الطابق الأول قد أصيب بزكام حاد، نزل على قصباته فجرحها، وفجّر هذا الصوت الذي يشبه ما لا يعرف! حاول أن يغفو من جديد، وما كاد أن يضم زوجته، ويمد يده إلى مواضع فتنتها حتى انتفض على صوت سعال فظيع جاءه من الطابق الأول. نهض من سريره، وتوجه إلى المطبخ قبل أن يغسل وجهه، وأعد القهوة، ثم فعل كما فعل مساء أمس، جلس وحيداً في الصالون الفسيح مع فنجانه، وسجائره، وصمت الصباح. أكثر من مرة هم أن ينادي أم مصطفى لتستيقظ. لكن الصوت كان يقف في الحنجرة. فكّر في أن يستمع للأخبار، ولكنه ردع نفسه، واعتبر أنه من المخجل أن يفتح التلفزيون بعد أسبوع واحد من رحيل أم مصطفى. وشيئاً فشيئاً بدأ تفكيره يتشتت. ماذا سيفعل بعد القهوة؟ قرر بحزم أنه لن يخرج من البيت. فالبرّاد مليء بطعام يكفيه لنصف شهر على الأقل، كما إن علب السجائر التي اشترتها له أم مصطفى ما زالت تملأ أرض خزانة الملابس. وحين خطرت له صورة الثياب، نهض على الفور إلى غرفة النوم، وتفقّد ما تركته أم مصطفى. هالَهُ عدد الغيارات الداخلية، وتلمّسها قطعة قطعة، حتى أنه كان يشم السراويل واحداً واحداً، ويتأمل ألوانها المتعددة، وأشكالها، وكأنه يراها للمرة الأولى، ودون أن يقصد تداعت صور أم مصطفى وهي ترتديها، ثم وهو يخلعها عنها، ثم وهو يباشرها. خمسون عاماً

من عمر الجسد تزاحمت في مخيلته نهراً من الشبق والالتحام والأصوات الحارقة، وحين تناول السروال الأخير من قعر الدرج أدرك أن عروسه كانت تلبسه في ليلة العرس! وما كاد أن يقربه من أنفه حتى سمع انفجار السعال الغريب يصعد من الطابق الأوّل. ارتعد خجلاً وانزعاجاً، ورتب الملابس بهدوء في أمكنتها، ثم عاد إلى الصالون.

انتبه أبو مصطفى إلى المنفضة، ولم يتفاجأ عندما عرف أنه دخّن خمس سجائر. فهو مدمن على التدخين قبل زواجه. وهو يتذكّر دائماً الخلافات الخفيفة العابرة مع زوجته حول رائحة نفَسه. مرّات كثيرة رجته ألا يقبلها في شفتيها لأن رائحة التبغ لا تحتمل. وفي أحايين لا يعرف عددها كان يقطع لقاءهما ويذهب لينام في الصالون، ولكن أم مصطفى كانت تراضيه، وتتفنن في إمتاعه فينسى الأمر، وترجع علاقتهما إلى الانسجام، والاحترام المتبادل. غير أنه لا يستطيع أن يطرد من ذاكرته تلك المشادة الجسدية الصامتة التي حدثت منذ ثلاثين عاماً. كان قد انتظر زوجته أربعة أيام لتتطهر من مرضها الشهري، وفي ذلك المساء ذهب إلى النوم مبكراً، ولحقت به أم مصطفى كالعادة. وما إن استلقت إلى جانبه حتى عرّاها بسرعة وعنف، وهي ترجوه أن يتمهل. بعدئذ انقض على شفتيها وهو يتمدد فوقها. همست في أذنه أن يبعد أنفاسه عن وجهها، فلم يرد، عاودت الرجاء، وأخبرته أنها تكاد تختنق، ولكنه ألح أكثر على أن يمص لسانها، عندئذ ضمت ساقيها، وأطبقت شفتيها، وانقلبت من تحته، فما كان منه إلا أن احتواها من الخلف، فشعر بلذة هائلة عندما ملأ ردفها حوضه. وبدلاً من أن يأتيها كما أمرت الشرائع، اخترقها من الخلف بلمح البصر. فصرخت صوتاً أيقظ الأولاد، وجعلهم يهرعون إلى غرفة نوم والديهما، ولكن صوت الأم طمأنهم من الداخل فعادوا إلى أسرتهم. بعد تلك الحادثة مرّ أسبوع من الصمت الفاتر، انتهى عندما قدّم أبو مصطفى لزوجته عقداً ثميناً هدية بلا مناسبة.

لا يعرف خالد عزو كم مر من الوقت وهم مستسلم لفيض من ذكريات الجنس، وحين انتبه شعر بالخجل، وأنّب نفسه، فلا يليق وهو مازال في الحداد أن يستحضر جسد زوجته الراحلة. ولكنه ما استطاع أن يهرب من حالته هذه لذلك ذهب إلى الحمام، وغسل وجهه عدة مرات، ثم دخل إلى المطبخ، وأعد قهوة جديدة، وحمل الصينية إلى الصالون الفسيح، وجلس وحيداً مع فنجانه، وسجائره، وصمته.

مع السيجارة الثالثة، انفجر صوت السعال من الطابق الأول، فارتعد أبو مصطفى، ونهض ففتح باب الشرفة، وأطل على الشارع، وتأمل المارة، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، ولأول مرة راح يراقب شرفات البيوت المجاورة. استغرب أنه يرى بعض السيدات ينشرن الملابس المغسولة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التلصص على السيقان العارية، فلعن الشيطان مراراً فكيف لرجل في السبعين أن يخون الجيرة، ويصطاد نظرات من نسوة غافلات وهن ينشرن ثياب العائلة. غير أنه انقاد رغماً عنه للبحث عن السراويل الداخلية المعلقة، عندئذ رجع إلى الصالون، وهو يشتم الشيطان الرجيم بصوت مسموع، ويستغفر الله العظيم.

فجأة رنّ جرس الهاتف. كانت ابنته حليمة على الطرف الآخر، لكم يحب هذه الابنة، لا لأنها تدللّه، وتكرمه، بل لأنها تشبه أمها في كل شيء، في الشكل والطباع، والصوت والمشية. وكم أسعده حديثها الطويل، وقبل أن يقفل الخط رجاها أن تزوره من حين إلى آخر حين تجد وقتاً. دبّ النشاط في خالد عزو، ونسي تداعياته الجارحة، وانصرف إلى إعداد فطوره البسيط. أكل بشهية، وشرب كأساً كبيرة من الحليب إكراماً لذكرى زوجته التي كانت تلح عليه دائماً بالحليب مع العسل. وبعد أن رتب المائدة، ونظفها قرر أن ينام قليلاً. ما إن تمدد أبو مصطفى في فراشه حتى هزه صوت السعال الحاد من الطابق الأول. لقد اخترقه كنصل، لكنه كزّ على أسنانه، ودعا لجاره بالشفاء العاجل، ثم غطى رأسه باللحاف، وأغمض عينيه. وما هي سوى لحظات حتى أقبلت

زوجته عارية واندست إلى جانبه تحت الغطـاء. مد يـده إلى شـيئه، وبجهد كبـير ووقت طويل مارس العادة السرية، واستسلم بسرعة لنوم عميق.

في الخامسة تمامـاً أيقظه رنين جـرس الهـاتف. كـان ابنه مصـطفى على الطـرف الثـاني، امتد الحـديث وتشـعب، الابن يصر على أن يقيم والـده معـه، والوالد يجـزم باسـتحالة الأمـر، وأخـيراً تم اتفـاق مجاملة ينص على أن يـزور الأب ابنه أسـبوعاً كل شهر، وهكذا يتخلّص من وحدته، ووحشة الابتعاد عن أبنائه، ومن الغريب أنهما لم يقولا شيئاً عن السيدة الراحلة غير أن مصطفى رجا والده بحرارة أن يخفف التدخين كرمى لصحته، ولذكرى المرحومة الغالية.

بعد انتهاء المكالمة استغرب خالد عزو طلب ابنه، واستنكر أن تكون الأم قد خبّـرت أولادها عن كراهيتها القوية لرائحة التبـغ، فمن أين خطر له أن يرجو والـده بكل هـذا الإصـرار أن يقلع عن التـدخين؟ وقبل أن يهتـدي أبو مصـطفى إلى تعليل كـان صـوت السعال الحاد قد صعد إليه من الطـابق الأوّل. بمـاذا يشـبهه؟ إنه من الغرابة بحيث لم يسمع له مثيلاً في حياته، انفجار؟ أم صوت فرقعة إشـكمان سـيارة؟ أم خـوار بقـرة؟ إنه هـذه الأصـوات كلهـا. لم يعد الأمر محتملاً، لا بد من زيـارة جـاره، والحـديث معه مباشرة بشأن هذا السعال الغريب.

رن أبو مصطفى جرس الطابق الأوّل عشرات المرات، ولكن الباب لم يفتح. فقدّر أن جاره يشعر بالخجل من سعاله، ولذلك هرب من مواجهته. فاضطر للعودة إلى البيت الفسيح الفارغ. وما إن جلس حتى انفجر الصوت نفسه. استغفر الله العظيم وأشعل سيجارة، وأخذ يتمشى في الصالون ذهاباً وإياباً، وحين لمح مرور السيدة في الطابق المقابل على الشرفة، خرج بدوره، وراح يمسح الشرفات المطلة بحثاً عن سيدة. بقي واقفاً حتى شعر بالتعب، فدخل وأحضر كرسياً، وقضى وقت الغروب كله على الشرفة يبحث عن سيقان عارية.

وما كاد أبو مصطفى يبلع اللقمة الأولى حتى انفجر صـوت السـعال. ارتجف جسـمه ارتجافـاً حـاداً من الغضب والسـخط على جـاره، فقطع طعامـه، واتجه إلى الهـاتف، وضرب الرقم المطلوب، وانتظر حـتى توقف الـرنين في الطـرف الثـاني. ازداد غضب أبي مصـطفى من جـاره، فهو لا يـرد على اتصـاله. لا شك أنه عـرف رقمه الـذي ظهر على الكاشف. إذاً فهو يقصد إزعاجه حتماً وإلا لماذا لم يفتح له البـاب؟ ولم يـرد على اتصاله؟ لا بد من وسيلة لوضع حد لهذه المهزلة من أولها إلى آخرها.

كان عليه أن يستحم قبل أن ينام بعد فعلته في النهار، ولكنه قضى وقتاً مؤلمـاً وهو يعارك جسده كي يطيعه في ممارسة العادة السرية دون جدوى، كان جسد زوجته يملأ الحوض أمامه، كانت أوضاعهما معاً تملأ عينيـه، ولكنه الآن عـاجز. فقط لو لم ترحـل! لماذا لم تنتظره ليذهبا معاً؟ ربما تنتظـره الآن في الجنـة! إنه واثق من اختيارهـا، ولن يختـــار غيرهـــا. فمن أين ســـيجد حورية بجمالهـــا؟ وإن وجد فمن أين ســـيجد عذوبة كعذوبتها؟ ومهارة كمهارتها؟ ووفاء كوفائها؟ فجـأة اقتلعه صـوت السـعال الصـاعد من الطابق الأول. فاجتاحته موجة غضب عارم، وارتدى ثيابه على عجل وهبط الدرج بهمة، وأخذ يدق على الباب بكلتا يديه، ولكن الباب استمر في عناده، ولم ينفتح، ولم يأت أي صـوت من الـداخل. اهتـاج أبو مصـطفى وراح يصـرخ على جـاره لكي يفتح، ثم تطـوّر الصراخ إلى سباب مقذع، ولكن دون جـدوى. عـاد خالد عـزو مرغمـاً إلى بيتـه، وذهب مباشرة إلى فراشه، وعلى الفور غرق في نوم عميق.

لا يعرف أبو مصطفى في أي ساعة بعد منتصف الليل هاجمه صوت السعال الصاعد من الطابق الأول، ما يعرفه أنه نهض، واتجه إلى المطبخ، وأخذ يد الهاون النحاسية، وبدأ يخبط بلا هوادة على البلاط ليعاقب جاره، ولكنه لم يسمع سوى صوت ضرباته. وعندما أنهكه الجهد، ارتمى على أقرب كرسي، وغرق مرة ثانية في نوم عميق.

اجتاز أبو مصطفى أسبوعاً من الرعب يطارده السـعال الغـريب وتجاهـلُ الجـار في الطـابق الأول. جـرّب أن يلجأ إلى الحـدائق في النهـار، أو إلى المقـاهي، ولكنه ما إن يدخل بيته حتى يخترقه صوت السـعال كنصل حـاد. فكّر أن يتصل بـأولاده ولكنه خجل من تفكيره، فكيف يبدو ضعيفاً إلى هذا الحد؟ ثم كيف يبدو وهو يتذمّر من سـعال جـار مريض؟ طرد الفكرة نهائياً، وقرر أن يجد حلاً بنفسه، ولو كلّفه الأمر ارتكاب جريمة.

كان الإرهاق من السهر، والعادة السرية الهاربـة، وصـوت السـعال الفـادح، قد جعل خالد عزو يستنجد بالنوم، أو الاستحمام، أو المزيد من القهوة والتدخين وبدأ يشــعر أن وضعه يتدهور بسرعة، وأن عليه أن يضع حداً لهذه المهزلة الغريبة.

انتشله رنين الهـاتف، وعنـدما رفع السـماعة أنعشه صـوت ابنتـه، فقد شـعر به دافئـاً صادقاً، ولذلك طلب منها أن تطيل الحديث قدر ما تستطيع، ومن طرفه بالغ في سؤالها عن الأولاد، وعن تفاصــيل حياتها اليوميــة، ولأول مــرة عن علاقتها بزوجهــا، وجيرانهــا، وأخوتها، وأخيراً وعدها بصورة قاطعة أن يزورها لمدة أسـبوع عنـدما ينتهي من مشـكلة صـغيرة تافهـة. بعد انتهـاء المكالمة شـعر بنشـاط، وجـوع، فأكل بصـمت، ثم دخل إلى الحمـام ليغسل وجهه قبل النـوم، وبلا قصد حـدّق في المـرآة، راعه أن شـعر لحيته قد طال، وتفاجأ بشكل عينيه وكأنه يراهما لأول مرة، أو كأنهما قد تغيرتـا، فهو لم يعتد على هذا اللون الأحمـر، ولا على هـذا الانتفـاخ الكبـير تحت كل عين، ولا على الهالة السـوداء التي تحيط بكل منهما. فقـرر أن يحلق ذقنه قبل أن ينـام، إذ كيف سـيقابل طيف زوجته بهذا الوجه الكريه؟ فجـأة دوّى سـعال حـاد طويـل، وفجـأة حـدّق خالد عـزو في المـرآة مستغرباً ومرعوباً، وتأمّل نفسه للحظات، ثم انخرط في ضحك هسـتيري، يقطعه سـعال هستيري، تتابع الضحك، واسـتمرّ السـعال جنونيـاً، كاسـحاً، متلاحقـاً. اتكأ خالد عـزو على المغسلة، ولكن السعال لم يهدأ، أحـنى ظهـره أكـثر فـأكثر، واستسـلم لخـدر انتشر في أعضائه كلها، كان الخدر يرافق السعال الحاد العاصف، تعاظما معاً، وتعاظما، حتى توقفا إلى الأبد في جسد خالد عزو (أبو مصطفى).

# وقت من سيرة مقهى

حين وصل خليل السقّا إلى ساحة الشيخ ضاهر كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر. توقّف قليلاً على الرصيف الغربي، وشدّ قامته، ثم نقل حقيبته الصغيرة إلى اليد اليسرى، ودون أن يهتم بضجيج الناس من حوله مشى بخطوات واسعة سريعة نحو مقهى هنانو. كان اهتمامه مركّزاً على الطاولة الصغيرة قرب النافذة الوحيدة في المقهى، طالما شعر بالضيق في مرّات كثيرة سابقة عندما كان يجدها مشغولة بزبائن آخرين. فجأة شعر خليل بالراحة وهو يضع حقيبته على الطاولة، ويسندها إلى الجدار. وعلى غير عادته شرد بنظره عبر النافذة، واستغرق في مراقبة الحديقة، والجدران المحيطة بها، وفكّر بالناس الذين يختبئون خلف النوافذ في هذا النهار التمّوزي الحار، حتى أن خياله عرض عليه صوراً لنساء عاريات في الحمّامات أو في الأسرّة الزوجية، وبدوره راح يحذف تفصيلاً من هنا، ويضيف لمسة من هناك ليستقيم الجسد ويأخذ الوضع الشكل الذي يرضي أهواءه الخاصة.

بعد شرود لذيذ طال أخرج خليل علبة سجائره، وأشعل واحدة، عندئذ انتبه إلى أن النادل لم يحضر له فنجان قهوته المرة. لقد تعوّد أن يسرع النادل به دون أن يطلبه، كما تعوّد أيضاً أن يغيّره بلا انقطاع كلّما فرغ. التفت إلى طاولة المعلّم فأدهشه منظرها الجميل النظيف وكأنه يراها للمرة الأولى، ولكنّ ما أثار دهشته أكثر أنه رأى الطاولات كلها جديدة، وحتى البراد في الزاوية الشمالية الشرقية، كان جديداً. نظر خليل إلى أرض المقهى، وصرخ في داخله: يا إلهي ما أروع هذا الرخام الأخضر! كل شيء كان لامعاً نظيفاً. ولكن ما استغربه خليل، ولم يفهمه أن المقهى كان خالياً من الزبائن، والعمال، والمعلم أيضاً. قلّب الأمر في ذهنه، فاهتدى إلى تفسير مؤقت وقال لنفسه: ربما ذهبوا جميعاً إلى الصلاة فجدار المقهى يلاصق تماماً الجدار الجنوبي لجامع العجان المعروف. هزّ رأسه بلا قصد، وتابع تمسيد كرسي خده الأيسر بسبابته اليسرى، تلك العادة التي اكتسبها فور سماعه نبأ إحالته على التقاعد.

مرّ الوقت بطيئاً ثقيلاً، ولم يأتِ أحد. شعر خليل بأنه محاصر، وأن الصمت الذي يلف المقهى غير مفهوم. وكحلٍّ بدا شاذاً وغريباً، نهض بسرعة، واتجه إلى المطبخ الصغير. شهق خليل بصوت مسموع عندما رأى كل شيء جديداً مرتّباً برّاقاً؛ الفناجين، الصحون، الأراكيل، المنقل، الأباريق، دلال القهوة، والمجلى.. ماذا حدث؟ لا شك أن صاحب المقهى اللطيف استجاب لطلباته المتكررة، وجدّد المقهى تمشّياً مع تطوّر الحياة، واحتراماً لزبائنه، أو ربما كان قد ملّ المستوى الشعبي للمكان وروّاده طوال ثمانية وخمسين عاماً.

أعدّ قهوته بنفسه، وتأنى في غليها على نار هادئة، وعاد إلى طاولته. دخّن سيجارة، وأخرى، وأخرى، ولم يأت أحد مما جعل خليل يعتقد أن المقهى مازال في مرحلة التجديد، وأنه لم يفتتح بعد، وربما سيقيم صاحبه (المعلّم) احتفالاً كبيراً غداً، أو بعد غد بمناسبة الافتتاح الجديد، وسيوزّع المشروبات الساخنة والباردة مجاناً على الحضور. عند فكرة المشروبات المجانية، ابتسم خليل بمزيج من الأسى والحنين الدافئ لذلك العجوز الأعرج. كان يأتي دائماً بعد الثانية ومعه رغيف خبز، يطلب كأس شاي بالدّين، أحياناً كان النادل يرفض طلبه، وأحياناً كان المعلّم يقدّمها ضيافة مجانية. وفي مرّات قليلة كان خليل نفسه يتطوّع بثمنها. مرّة قال كبير العمال أبو فريد أن العجوز شحّاذ، يدور في الصباح على الأحياء البعيدة، ويأتي بعد الظهر زبوناً إلى المقهى.

نقّل خليل بصره من طاولة إلى أخرى، وكان يتوقّف عند كل واحدة. إنه يشعر بشوق حار لأصوات أولئك الشبان الذين كانوا يحتلون دائماً الطاولة المجاورة،

ويتبـادلون أقسى أنـواع الشـتائم والمفـردات البذيئـة. ولكنهم لا يتشـاجرون أبـداً، ولا يغضب أحد منهم. كـان يـرى الأمر مقـززاً ومنفِّراً. ولكنه الآن قـرب النافـذة الغربية الوحيـدة يفتقد صـخبهم وسـوقيّتهم. وما كـاد بصر خليل يصل إلى الطاولة الأولى إلى يمين الباب حتى شعر بنوع من الأسى الثقيل، وتمـنى من كل قلبه أن يـرى إلى جانبها ذلك الرجل المتباهي. وحتى لو تكلم بصوته الأجش المقرف فلن يغضب منه. وحتى لو بصق على الأرض، ومسح بصـاقه بحذائه لن يمتعض، ولن يـرغب في التقيّـؤ. وعلى العكس من ذلك كله سيشكره لأنه يقدّم الشاي مجاناً لتلك المتسـوّلة العجـوز الـتي لا تتوقف عن شتيمة أبويها لأنهما جاءا بهـا، ورمياها بلا مـأوى، ولا مـال، ولا أخ، ولا سـند. وحين كـانت تنفجر ببكـاء متفجّع ممطـوط وهي تعلن أن طبيبها قد أخبرها أن عليها غسل كليتيها مرّتين في الأسبوع بدل المرّة الواحدة.

لام خليل نفسه لأنه لم ير الوجه الكريم لذلك الزبون المتباهي. وقـرر أن يعتـذر منه في أوّل لقاء، وأن يدعوه إلى فنجان قهوة على طاولته قرب النافذة الغربية.

أين أولئك الزبائن هناك؟ كانوا يهبطون بضجيج وقح، ويتبادلون نكاتاً وقحة، ثم يجلسون لساعات، يثرثرون على الهواتف المحمولة، ويستعرضون النغمات المتنافرة لكل جهاز. أين ذلك المتعهد الخجول المتردد الذي كان يلازم هاتف المقهى، يرسل اتصالاً، أو يستقبل اتصالاً، يضرب موعداً مع ذاك، ويلغي آخر. يسدد فواتيره بكلمة، ويقبض آلاف الليرات بكلمة، كم كان خليل يتضايق من هذا السلوك، وكذلك من صوته، وحتى شكل أنفه المعقوف! ولكنه الآن يفتقده، ويودّ لو تنشقّ الأرض عنه، ليتناول سماعة الهاتف، ويمارس طقوسه اليومية.

تحمّل خليل الوضع كلـه، آملاً أن يأتيه تفسـير مقنع في أي لحظـة، ولكن ما لم يتحملـه، وما لم يفهمـه، هو أن القطة "ميلـو" ـ كما كـان يناديها دائمـاً ـ دخلت من النافذة، تحمل ولدها في فمهـا، وعـبرت المقهى بأقصى سـرعة، ولم تـرد على ندائـه، حتى أنها لم تلتفت إليه. ما لها "ميلو"؟! ما من مرة صادفها لم يدللها. كـانت تسـتلقي إلى يسـاره على الكرسي المجـاور، وكـان يـداعبها طـويلاً، يحك لها رأسـها، ويمسّـد شعرها الأبيض الطويل، وفي كل مرة تقريبـاً كـان يحضر لها قطعة طعـام تحبهـا. لا بد أن في الأمر سراً. حـتى "ميلـو" غريبة هـذا اليـوم. ولكن لمـاذا يكبِّر المسـألة، إنها قد تخون صاحبها لأهون الأسباب. ومع ذلك فقد كان سلوك "ميلو" بالنسـبة له يتجـاوز كل حدود الاحتمال.

فار غضبه ونهض بعصبية، واقفاً قبالة الجدار تماماً، وصرخ: لماذا لا تتكلّم أنت أيضاً؟ لماذا بدّلت جلدك؟ لماذا لا تحكي لي عن تاريخك الطويل؟ آه لو أفهم لغة الجدران، أو لغة الحجـارة! ولكن ما الفائـدة؟ بغتة تخيّل خليل أنه سـمع صـوتاً يخـرج من الجـدار. أصاخ السمع فتكرر الصوت. ما الذي يجري؟ مـاذا أصـابني؟ ما معـنى ذلك كلـه؟ جـاء الصوت هذه المرّة حازماً يـأمره بـأن يخـرج من المقهى بلا مناقشـة، ولا تـردد. وكمن فقد السـيطرة على حركاته هـرول خارجـاً. وما إن اجتـاز العتبة حـتى ملأت أنفه رائحة فظيعة لم يعرفها من قبل. وشعر بخدر ثقيل يجتاح جسـمه. تقـدّم خطـوة إلى الأمـام، وقبل أن يتم الثانية رأى السـاحة أكوامـاً من الحطـام، والحجـارة، والأشـياء المقلوبة المتكسّرة، وكان آخر ما رآه خليل السقّا سحابات من الدخان الأسود الكثيف!

# الرغبـة الغامضة

لا يتذكّر سعيد خضور الآن كيف بدأ الأمر. ما يعرفه بوضـوح أن هيفـاء برهـوم كـانت ابنة جيرانهم، وكانت تكبره بسنة واحدة. وهيفـاء فتـاة كغيرها من بنـات القريـة، تربط شعرها في جديلة واحدة، وترتدي ثوباً طويلاً فـوق سـروال طويـل. وتسـاعد أهلها في أعمال بسيطة تكبر معها كلما كبرت. وعندما بلغت الثامنة كـان سـعيد رفيقها المفضل في كل شيء، يلعبان معاً، وتساعده في دروس القراءة، ويذهبان إلى الحرشة القريبة للتسلية، أو قطف الأزهار، أو جمع العيدان اليابسة.

كان سعيد يشعر بغبطة مبهمة عندما تبتسـم، وهيفـاء لم تكن تضـحك أبـداً، غـير أن وجهها كـان يكتسي عذوبة نـادرة عنـدما تبتسـم، وترتسم عليه غمازتـان تزيدانه بـراءة وملاحة.

سعيد خضّور لا يتذكر الآن كيف بدأ الأمر، وما يتذكّره أنه شعر فجأة برغبة حادة في أن يراها عارية تماماً كما خلقها الله. حاول في البداية أن يتلصص عليها وهي تسـتحم، ولكن ذلك كان مستحيلاً لأن الناس في القرية يغلقون أبوابهم بإحكام أثنـاء الاغتسـال. وحاول مرة وهما يجلسان في تجويف صخرة عملاقة، مد يده إلى طرف ثوبهـا، ورفعه فصدّته بسرعة، ونهضت عائدة إلى البيت. لم يترك وسيلة خطرت في باله إلا وجربها، ولكنه فشل في تحقيق رغبته في أن يراها عارية كما خلقها الله!

انتهى العـام الدراسـي، نجح إلى الصف الثـاني، ونجحت إلى الصف الثـالث، وبقي سـعيد رفيقها المفضّـل في كل شـيء، يلعبـان معـاً ويـذهبان إلى حقـول القمح، ويتشـاركان في قطف السـنابل الناضـجة، وشـيّها، وأكل حبوبها اللذيـذة. وعنـدما بـدأ موسم الحصاد كانا معاً في غاية السـعادة وهما يراقبـان الحصـادين، وأكـوام السـنابل اليابسة على البيادر، وخاصة مراقبة صناعة المروج التي ستدرس القمح.

عندما جاء دور أهل هيفاء بالدرس، أعدوا مخزن التبن، وحضّروه لتخزين الموسم الجديد. وهم ككل أهالي القرية يهتمون بمؤونة الماشية في الشتاء، وخاصة مؤونة البقر، ولذلك كان الجميع يحرصون على نقل التبن عن البيدر في يوم التذرية بلا تأجيل أو تأخير.

مخـزن التبن يكـون عـادة على طـرف الـبيت، أو خلفـه، وفي سـطحه فتحة مـدوّرة تكفي لصب الأكيـاس المنقولة عن البيـدر. في ذلك اليـوم طلبت هيفـاء من سـعيد أن يسـاعدها في تسـوية كومة التبن، وعلى الفـور قفز من الفوهة إلى الـداخل، وقفـزت بعـده بلا تـردد. وزّعا معـاً الكومة في الزوايـا، وقفـزا فوقهـا، وتعاركا بمـودّة، وهما ينتظران نقلة، فأخرى، وأخرى.

فجـأة ثبّت سـعيد نظراته في عينيهـا، ومسح ثوبها الطويـل، ولمح تحته سـروالها المزموم حول أعلى قدميها. وبصـمت مـدّ يـده، ورفع الثـوب إلى الأعلى، ولم تقـاوم! خلعه عنها، ثم خلع سروالها الطويل، ولم تقاوم. وبـدوره خلع ثوبه الطويـل، وسـرواله وهي صامتة مطرقة. مدّدها فوق التبن، وتمدد فوقها، ثم أغمض عينيه، وذهب في لـذة غريبة مدوّخة.

ها هو ذا في السبعين من عمره يقف على قبرها الطري، ويتساءل: لماذا لم تغضب منه؟ لماذا لم تخبر والديها؟ أو والديه بمضايقاته المتكررة؟ بل لمـاذا كـانت تبحث عنه إذا تـأخّر في زيارتهـا؟ هل كـانت تـرغب في أن يراها عاريـة، وتـراه عاريـاً؟ لقد كانا طفلين، كـبرا معـاً حـتى نهاية مرحلة الدراسة الثانويـة. وخلال تلك الفـترة الطويلة لم يحدث أن حاول رؤيتها عارية، ولم تحاول. لم يذكر لها حادثة بيت التبن، ولم تذكّره بها. لم يتزوّج، ولم تـتزوّج هيفـا. وفي لقاءاتهما العـابرة كـان يسـألها: لمـاذا لا تـتزوجين يا

هيفاء؟ فترد عليه ضاحكة: ولماذا لا تتزوّج يا سـعيد؟ ولكنها غيّـرت جوابها بعد السـتين من عمرها، فقد صارت تمازحه قائلة: أنتظرك يا سعيد!

وها هو ذا سـعيد خضـور يقف وحيـداً على قبرها الطـري، يبكي بكـاء صـامتاً حـارّاً، ويشعر بقوة أنه يرغب في أن يراها الآن وهي في القبر عارية تماماً، وأن يتمـدد فوقها عارياً كما خلقه الله.

# وكالة خاصة غير قابلة للعزل

تعوّد خليل هيفا أن تبدأ قيلولته في الساعة الثالثة، وأن تنتهي في الساعة الخامسة. كما تعوّد أن يضع ساعة المنبه مقابل سـريره لكي يتأكد من دقة مواعيد عاداتـه. فبعد أن يتريض قليلاً في الفراش، يتجه إلى المطبخ المتواضـع، ويعد قهوتـه. بعد ذلك يرجع إلى ما يسـميه (الصـالون الضـيق الصـغير)، ويبـدأ التـدخين بلا انقطـاع حـتى تنتهي السيجارة الخامسة مع الرشـفة الأخـيرة من الفنجـان الثـاني. وينهض خليل هيفا حالما يطفئ السيجارة الأخيرة، ليغسل وجهه ويديه فوق المغسلة الوحيدة أمام دورة المياه. كان يستمتع بهذه الطقوس اليومية، ويحافظ عليها بدقة تمنحه الشعور بالرضا والتميّز. ويذكر دائماً للقلة النـادرة الـتي يقابلها من النـاس أنه تعلّم أن يضـبط حياته على هـذه الصـورة منذ خمسـين عامـاً. كما كـان يـذكر بدقة تـاريخ التحاقه بمدرسة البـدو في العشرين من أيلول عام 1955م. ويذكر كيف قابل أمير العشيرة، وأجاب على أسـئلته الكثيرة، وفهم منه أسلوب الحياة التي سيحياها مع أبناء القبيلة. خمسة أعـوام قضـاها متنقلاً من بادية إلى باديـة، ومن خيمة إلى خيمـة، ولكنه كـان دائمـاً مزهـواً بالشـهادة الثانوية التي حازها. ولذلك كـان يـروي للبـدو قصة كفاحه الطويل مع الدراسـة، وكيف كان يمشي عشرة كيلومترات إلى المدرسة في الصـباح، ويقطعها في المسـاء عائـداً إلى بيته. ولكن المجمرة التي مازالت تحيا في كيانه كلـه، والـتي لم يتحـدث لأحد عنها كانت شهلة! شهلة التي صـادفها ذات غـروب في (البوسـطة). كـان يجلس وحـده إلى يمين السائق. فهو معلّم أبناء العشيرة، وضـيفها الـدائم. وكـانت شـهلة الجاسم تجلس خلفه تماماً. تحرّكت (البوسـطة) غـير مسـتعجلة في ظلام الرمـال. وبلا قصد مـدّ يـده اليسـرى على مـداها فـوق مسـند المقعد الفـارغ إلى يسـاره، ولدهشـته أحس بكف تمسك بكفه. بصمت حارق أقامت كفه في كفها طوال الطريق. واليـوم وبعد خمسـين عاماً مازال يرتعد من الخوف وهو يتذكر تلك الحادثة. ماذا لو رأى أي راكب ما حـدث؟ ماذا لو عرف أي رجل من أفراد القبيلة؟ أو أهلها؟ أو الأمير نفسـه؟ وكما كـان متأكـداً وقتها فإنه متأكد الآن أنه ما كان باستطاعته أن يستردّ يده. وأنه كان مسـتعداً للمـوت مقابل تلك اللذة العابرة التي هبطت عليه بلا تخطيط، ولا توقّع.

استيقظ خليل من قيلولته، وكعادته دعك عينيه، ثم نظر إلى سـاعة المنبـه، فاجتاحه انقباض جارف عندما رأى العقارب قد اجتازت الخامسة بأكثر من عشرين دقيقـة. ومع ذلك فقد تريّض قليلاً في فراشه، وبعـدها نهض إلى المطبخ، وأعد قهوتـه، ثم رجع إلى الصالون الصـغير الضـيق، ومع الرشـفة اللاذعة الأولى كـان قد أشـعل سـيجارة، وعبّ منها نفساً عميقاً. ولدهشته شعر أنه يشـرب القهـوة وحيـداً، وهو الـذي شـربها وحيـداً خمسين عاماً. ابتسم وسخر من شعوره،وتابع قهوته وتدخينه. ولكن وجه شهلة الغالب أبى أن يبـارح المشـهد. إنه يراها دفعة واحـدة عـبر خمسة أعـوام، خاصة وهي تـركب الهودج في يوم عرسـها. تلك الـ (شـهلة) الـتي حـرقت أعصـابه بابتسـاماتها، وغنجهـا، وملامساتها العابرة، ومازالت تدوخه بعد خمسين عاماً. مرة واحدة رآها عارية تسـتحم في خيمتها ذات غـروب نـادر. ومـرة واحـدة ضـمها، ورفع ثوبهـا، وتفاجأ أنها لا ترتـدي سروالاً، وفي تلك المرة التي استمرت أقل من دقيقة كان قد غرز شـيئه بين فخـذيها، ودفق ماؤه كالصاعقة، بينما كانت شهلة تغرغر بالضـحك، متعابثـة، قائلة له بأنه بـوّال! تلك كانت المرة الوحيدة التي احتضن فيها امرأة من لحم ودم، والمـرة الوحيـدة الـتي اكتوت فيها أصابعه بملامسة ورك ساخنة، والمرة الوحيدة التي مرّت أصابعه على فخذ مهلكة بحرارتها، ونعومتها. بعد تلك المرة أصبح سجيناً لأوهامه، وعاداته الخاصة.

مرّة ثانية دعك خليل عينيه، ولعن الشيطان، وتذكّر شقيقه فجأة. ومع نهاية الفنجان الأول بدأ يلوم نفسه، ويستسلم لحنين جارف لأبناء أخيه، وأخذت الأسئلة تتوالى كنافورة غزيرة، لماذا افتعل تلك القطيعة القاتلة مع أسرته؟ لماذا تغيّر بعد عودته من الجزيرة؟ لماذا لا يعرف زوجة أخيه؟ أو عدد أولاده؟ أو حتى اسم واحد منهم؟ لماذا هجر القرية هجراناً صارماً؟ لماذا انزوى في هذا البيت الصغير الضيق خمسين عاماً بعد عودته من الجزيرة؟ لماذا لم يخطف شهلة، ويفر بها إلى قريته في ريف الحفة؟ أسئلة وأسئلة أخرى تتوالد كنهر مجنون لا يكف عن الثرثرة، والقفز، والاندفاع.

وقف خليل واتجه إلى صندوق أوراقه الحميمة، وأخرج صورة شهلة، وغاب مع أوهامه، وعادته الخاصة دقائق. وحين أفاق من غيبوبة لذّته دعك عينيه، وأجال بصره في الصالون الصغير الضيق فوقعت نظراته على جهاز الهاتف! نظر إليه كمن يكتشف قارة، فهو منذ سنوات لم يمد يده إلى قرص أرقام جهاز الهاتف. إذاً لماذا لا يتصل بشهلة أو بأخيه؟ وقرر بلا تردد أن يبدأ من أسرته، وأن يتصل بشقيقه الوحيد. ضرب خليل ستة أرقام، وجاءه الصوت من الطرف الآخر. كانت جمل خليل في البداية مبعثرة، مشوشة، ولكنها استقامت شيئاً فشيئاً. بعدئذ استقرّت فأخذ يستفيض في الأسئلة عن صحة أولاد أخيه، وأسمائهم. ويعتذر عن خطأ القطيعة الجسيم، ثم بدأ الحديث يدخل في دفء الرحم، ورقة الأشواق والحب. وتوالى الكلام وتفرّع وتشعّب حتى امتد ساعات، وخليل يؤكد في كل مفصل على محبته لشقيقه، وأسفه العميق على مقاطعته. وذهبت به حرارة المكالمة للحديث عن تجربته في البلدية، وعن حبه الملتهب لشهلة التي لمس وركها العارية مرة واحدة، ودفق ماءه بين فخذيها مرة واحدة. ولكن المفاجأة التي صعقت خليلاً هي أن أخاه لامه على حياته في بيت صغير ضيق، لا شرفة له، ولا منافذ صحية، وبعد أخذ ورد فهم خليل أن شقيقه لا ينكر عليه ميراثه من أبيه. وأنه احتفظ له بشقة فسيحة في اللاذقية تحت رقم 8059/9 طوق البلد. وأنّ باستطاعة خليل أن يسجلها ساعة يشاء في الدوائر العقارية باسمه. وطالما كان خير البر عاجله فإن الصباح التالي خير موعد، وإن الساعة العاشرة صباحاً ستكون الموعد بين الشقيقين في مكتب الكاتب بالعدل ليكتب له وكالة خاصة غير قابلة للعزل بالشقة رقم 8059/9 طوق البلد. كان الليل قد تقدم سخياً حتى كاد ينتصف عندما انتهت المكالمة الفاصلة. شعر خليل بنشوة خاصة، وفكّر أن يخبر شهلة أنه أصبح يملك بيتاً فسيحاً في المدينة مقابل البحر. وأنها تستطيع أن تزوره متى شاءت، وإن كانت قد تطلقت فسيسعده الزواج منها، وأكد في مناجاته لها أنه مازال يستطيع أن يلمس وركها العارية، ويتحسس فخذيها الساخنتين، بل أكثر من ذلك يستطيع أن يدفق ماءه كما فعل في المرة الأولى. وحتى لو سخرت منه ووصمته بأنه بوّال فإنه لن يغضب منها، ولن يتوقف عن رفع ثوبها كلّما سمحت له الظروف.

في تلك الليلة كان نوم خليل متقطعاً خفيفاً، فقد احتلته صورتان متداخلتان شهلة والعقار 8059/9 طوق البلد. ومع شعاع الفجر الأول كان خليل في مطبخه الضيق الصغير يغلي قهوة الصباح. وعلى غير عادته كرع فنجاني قهوة بسرعة، واكتفى بتدخين سيجارة واحدة، بعدئذ حلق ذقنه بعناية، وغسل وجهه، وارتدى أجمل ثيابه. كان يفكّر أن عليه أن يبدو أمام شقيقه بهياً في أحسن صورة، ولم ينس قبل أن يخرج أن يأخذ معه هويته الشخصية ودفتر تقاعده، ودفتر خدمة العلم. وكل الوثائق الشخصية الرسمية، وبينما كان الموظفون الرسميون في أسرّتهم كان خليل في الشارع يوقف أوّل سيارة أجرة يصادفها، ويطلب من السائق أن يقلّه إلى بناية المحاكم أو الكاتب بالعدل. حين نزل من السيارة رفض السائق أن يأخذ منه الأجرة، وغادر دون أن يوضّح سبب مسامحته بخمس وعشرين ليرة سورية. مطّ خليل شفته السفلى واتجه نحو البناء. كانت بوّابة الدخول لا تزال مغلقة، والرصيف خالياً من المارة، فأخذ يتمشى صعوداً، ونزولاً أمام البنايات الصامتة. فجأة مرّ به بائع قهوة متجوّل، فاستوقفه،

وطلب منه كأساً كبيرة بلا سكّر، وحين مد يده بعشر ليرات للبائع، ردّها البائع بلطف قائلاً إنها ضيافة. ثم تابع مشواره الصباحي تاركاً لخليل الدهشة والارتباك. استغرق خليل في احتساء قهوته، وتدخين سيجارة من سيجارة، وهو يتكئ إلى جذع شجرة الرصيف، ونسي كم مرّ من الوقت وهو يتخيّل شكل أخيه، ويرتب شكل عناقه له، وذهبت به الحالة فأخذ يفترض جازماً لون بدلته، وربطة عنقه، وتسريحة شعره، وحجم شاربه. كان خليل مستمتعاً بانتظاره، ومشاعره الحارة تجاه اللقاء الموعود، ولاحظ المبنى، فتذكّر أن محاكم المدينة كلها موجودة أمامه، وأن عليه أن يبدي احتراماً خاصاً للعدالة المتجسدة بكل هيبتها ورهبتها المشهودة. تنهد خليل، وبلا تفكير صعد الدرج، ودخل من الباب اليميني، ورمى نفسه على أوّل مقعد فارغ وصل إليه، وبعد دقائق جاء رجل طاعن في السن، وجلس إلى جانبه، ثم ألقى عليه تحية الصباح، وأخرج علبة دخانه، وقدّم له سيجارة، ولكن خليلاً ردها بلطف بحجة أنها ثقيلة عليه. ولكن الرجل الطاعن في السن ضحك ضحكة متدرجة مستغرباً الرد، فهو عجوز ومع ذلك يدخّن علبتين كل يوم، ثم بدأ يروي لخليل حكاية عن التدخين لم يفهم منها سوى الجملة الأخيرة (وبعد ذلك ذهبوا..)، وانخرط الرجل الطاعن بالسن في الضحك، وفجأة شعر خليل أن عليه أن يجامله، فهزّ رأسه استحساناً، وانخرط بدوره في الضحك. وبعد الانتهاء من الاحتفال بالحكاية سأله الرجل عن سبب حضوره المبكّر إلى المحكمة، فروى له خليل بحماس القصة كلها بعد أن حذف منها ما يتعلّق بشهلة. عندئذ شرح له الرجل أن الوكالة الخاصة تحتاج إلى براءة ذمة من المالية، وإلى بيان عقاري رسمي من الدوائر العقارية، وطلب من خليل أن يسأل الكاتب بالعدل نفسه ليتأكد من ذلك. عندئذ نهض، واتجه إلى مكتب الكاتب بالعدل، وتأكد من صحة كلام الرجل الطاعن في السن. وبناء على نصيحة هذا الجار اتجه إلى الدوائر العقارية.

دخل خليل إلى الطابق الأرضي وتفاجأ بالازدحام الخانق في الممـرات. ولكنه تقـدّم إلى أوّل مكتب صادفه، وسأل الموظف أن يعطيه بيان قيد عقـاري بالمقسم 8059/9 طوق البلد. أشار عليه الموظف أن يصعد إلى الطابق الثالث، وهنـاك سـيجد الموظف المختص. كان خليل يدفع نفسه دفعاً من درجة إلى أخرى غير مبـال بالزحـام، ودخـان السـجائر، وارتفـاع الطـابق الثـالث، ورغم الجهد الـذي عانـاه فقد وصـل، وسـأل عن الموظف المختص، ووجـده في مكتبـه. شـعر خليل بالرضا والسـعادة، وأن كل شـيء يسير كما يريد بلا مشاكل ولا معوقات. وتقدّم بثقة من الموظف، وحيـاه بـأدب ورقـة، ثم طلب منه بيان قيد عقاري بالمقسم 8059/9 طوق البلد. ارتبك الموظّف لكنه قدم لخليل كرسـياً، وبعد أن اسـتقرّ عليه سـأله عن ورقة الطلب الرسـمية لبيـان القيد العقاري فأفهمه خليل أن لا خبرة له بالدوائر ولا بالطلبات، ورجـاه أن يـوفر عليه هـذه الجهـود الـتي لا يقـوى عليهـا. عندئذ أخـرج الموظف من درجه ورقة رسـمية، وألصق عليها طوابع، ودون اسم خليل هيفا، ورقم العقار، ثم أحضر من الخزانة سجلاً سـميكاً، وقلّب بعض صفحاته قبل أن يغلقـه، وأخذ نفسـاً عميقـاً وهو يقـول لخليـل: يا عمي، لا وجود لأي عقار في طوق البلد بهذا الرقم! انتفض خليل كمن لدغته أفعى، وأكد بجمل متلاحقة حانقة أن العقار موجـود وأنه يخص والـده، وأنه على موعد مع شـقيقه ليكتب له وكالة خاصة غير قابلة للعزل بالعقـار نفسـه. هـدّأه الموظف بلطـف، وأجلسه على الكرسي، وسأله إن كان يحمل أوراقاً رسمية تثبت كلامه. ردّ خليل ردّاً قاطعاً، وأخـرج من جيب سترته كل الوثائق الشخصـية الـتي أحضـرها معـه. تنـاول الموظف الوثـائق، وراح يقرؤها ببطء منقِّلاً نظرته بين الوثيقة ووجه خليل، وأخيراً فتح دفتر خدمة العلم، وتوقّف عند صفحة بعينها، صـمت لحظـات ثم قـال لخليـل: يا عم.. يا عم، مـاذا أقـول لك؟ وكيف أقول لك؟ يا عم لا يوجد عقار في المدينة بهذا الـرقم أبـداً.. أبـداً.. أبـداً، يا

عم.. كيف أقول لك؟ ليس لك أي شقيق في هذا العـالم.. ببسـاطة أنت لم تـؤدِّ خدمة العلم لأنك وحيد، فماذا أقول أكثر من ذلك.. وكيف يمكن أن أساعدك.. يا عم!

# حسـام وليلى

خرجت أسرة حسام من شقتها. نظرت الأم إلى باب الجـيران وهي تستسـلم لبكـاء صامت. وحين تأمّل أبو حسام بـاب الجـيران، أشـاح بوجهه المحتقن كيلا يضـعف أمـام زوجته، وولده الوحيد. ثم هبط الـدرج صـامتاً متـوتراً بينما كـان حسـام ينتظر بقلق أن ينفتح الباب، وتظهر ليلى. لقد كبرا معاً على الدرج، وفي الطريق إلى المدرســة، وفي الانتقال من صفّ إلى صفّ، حتى أصبحا الآن في الخامس الابتـدائي، ومعـاً كانا يحبـان المطر والزيتون والمكدوس والقمر والبحر.

وها هو ذا ينتظـر، ولا يجـرؤ على قـرع الجـرس. وها هو ذا يرحل دون أن يلقي تحية الوداع على ليلى.

خرجت أسرة ليلى من شقتها. نظرت الأم إلى باب الجيران وهي تستسلم لبكاء صامت. وحين تأمّل أبو ليلى باب الجيران، أشاح بوجهه المحتقن كيلا يضعف أمام زوجته، وابنته الوحيدة. ثم هبط الدرج صامتاً متوتِّراً. بينما كانت ليلى تنتظر بقلق أن يفتح الباب، ويظهر حسام. لقد كبرا معاً على الدرج، وفي الطريق إلى المدرسة، وفي الانتقال من صفٍّ إلى صف، حتى أصبحا الآن في الخامس الابتدائي. وها هي ذي تنتظر، ولا تجرؤ على قرع الجرس. وها هي ذي تشدُّ حجابها الخفيف، وترحل دون أن تلقي تحية الوداع على حسام.

ويضيف الراوي: ما زال حسام ــ منذ خمسة وعشـرين عامـاً ــ يبحث عن وجه ليلى خلف كل حجاب يصادفه في الشـارع. وما زالت ليلى تبحث عن وجه حسـام من خلف حجابها في كل الشوارع التي تجتازها.

ويعلّق الراوي:

قد يلتقي حسـام بليلى، وقد تلتقي ليلى بحسـام. وقد لا يلتقيـان. ولكنهما معـاً كانا يحبان الرسم والموسيقى والحسـاب. ومعـاً كانا يحبـان المطر والزيتـون والمكـدوس والقمر والبحـر. ومعــاً كـبرا على الــدرج، وفي الطريق إلى المدرسة الابتدائية حــتى فرّقتهما تلك العاصفة المجنونة.

# الغـدد الصم

اهتدى عبد العليم حسون إلى بناية الأطباء في شارع الثـامن من آذار، وعنـدما وقف على البوابة الكبـيرة لفت انتباهه ازدحـام الجـدران الداخلية بلوحـات أسـماء الأطبـاء، ورغم أنه كان قد تعب قليلاً فقد قرر أن يصعد الدرج ماشياً حتى الطابق الثـالث. حين دخل عبد العليم إلى غرفة الانتظـار كـان يجر خطـاه جـراً، فـارتمى على أول كرسي وصل إليه إلى يسار الباب، وأغمض عينيه وهو يضمّ حقيبة يـده إلى صـدره، واستسـلم لنوبة نعاس مفاجئة. صحا بعد لحظات على صـوت الممرضـة. سـألته إن كـانت زيارته الأولى فأكد لها بلطف أنه ليس مريضاً فقد جاء ليسأل الطبيب سـؤالاً خاصـاً فأكـدت له أنه على وشك الوصول.

انتبه عبد العليم إلى أن غرفة الانتظار ضيقة للغاية، وحين عدّ الكراسي لاحظ وجود مريض وإلى جانبه شابة تفيض ملاحة وجاذبية، وعرف من خلال ردها على الهاتف بأنها ابنة المريض الأنيق. وحين رأى خاتم الزواج في بنصرها عبرته كآبة لم يفهم سببها، فأدار وجهه وهو يردد في داخله: لو كان لي ابنة لرافقتني اليوم إلى هذه العيادة، ولو كان لي زوجة، لاتصلت بابنتها لتطمئن علي..

طرد خواطره بقوة، وراح يتأمل الممرضة بهدوء.

لاحظ عبد العليم أن ما يظهر منها خلف المكتب أقصر من المعتاد، ولاحظ أيضـاً أن أصابعها قصيرة إلى درجة أنه استغرب كيف تسـتطيع إمسـاك القلم. وما أجفله ودفعه إلى تعديل جلسته أن عينيها كانتا أصغر من حبتي عدس. ورغم ذلك كان وجهها أحمـر، رخواً كحبة شوندر مسلوقة. وكانت تحيط بالوجه الضئيل خصلات من شعرها المصبوغ بالأحمر الذهبي. تذكّر كمن يكتشف معجزة أنه تجاوز السبعين من عمره، وأن التحديق على هذه الصورة الفجة بالممرضة لا يليق بشيخوخته. فـاطرق وهز رأسه قليلاً، ونـزع نظّارته عن عينيه، وتلهّى بتنظيف العدسـتين، وحين أعادها إلى موضـعها، وركّزها على أنفه اتجه مباشرة إلى ابنة المريض. كاد يشهق من المفاجأة! فقد رأى شعرها القصير قد طال وانسدل حتى وصل إلى ركبتها، ورأى في وجهها إشعاعاً باهراً يخطف البصـر. فلم يسـتطع أن يركّز نظـره، فـأدار رأسه مرغمـاً باتجـاه الممرضة وسـألها إن كـان الطـبيب سـيتأخر، وبـدورها أكـدت له أنه على وشك الوصـول. لم يصـدق عبد العليم حسون عينيه، فالممرضة الضئيلة تزداد ضآلة، فهو لا يكـاد يراها وراء المكتب، وبـدا له وجهها بحجم حبة حمّص مسـلوقة، وحين ضـيّق عينيـه، ثبّت نظراته في عينيها بـدت له مثل "قضيب الدبق"!

ضحك في داخله من هذا الخاطر الغريب. وأخذ يقارن بين "قضيب الدبق" والقضبان الأخرى التي عرفها عبر حياته. واستغرب كيف يمكن أن تستخدم أعواد "الريحان" لاصطياد العصافير الصغيرة الملونة. فمنذ ستين صيفاً زارهم إلى قريته "الجورة" صديق لوالده. وفي ذلك الصيف كان كرمهم في عز شبابه. يكتظّ بأشجار التوت، والتين، والبلوط، وكانت الدوالي تلتفّ على الجذوع والأغصان التفافاً حميماً فاتناً. يذكر الآن كم كانت عناقيد العنب في آب جميلة وهي تتدلّى معلقة في الهواء، ويذكر أيضاً ثمار التين المتنوِّعة من البحري، إلى الصفراوي، إلى العسيلي، إلى الخضيري. كان كرْماً جميلاً، لعن الله الشيطان. ولكن الحق على ذلك الضيف الأنيق. فهو الذي أحضر معه أكثر من مائة "قضيب دبق". عيدان لا يتجاوز طولها نصف متر. مطلية بطبقة قوية من الدبق، ووزّعها ذلك الرجل بخبرة بين أغصان أشجار الكرم. يومها لم يفهم الطفل عبد العليم حسّون ما كان يجري، كان يراقب بفضول وصمت. ومع ارتفاع الشمس في قبة السماء كانت أصوات العصافير العالقة تزداد قوّة وحدة.

عبد العليم حسّون لم يستطع أن ينسى حتى الآن منظر ذلك العصفور المعلّق من جناحه، وذلك المعلّق من ذيله، وغيرهما الكثير. طار صواب الطفل وانتابه حزن طاغ، وشعر بارتخاء مفاصله، وبعد دقائق حملوه من البستان لأن جسمه كلّه أصبح ساخناً كالبيضة المسلوقة.

بقي عبد الحليم يـومين في غيبوبة شـبه دائمة من الحمى الصـاعقة، وعنـدما فتح عينيه ليرى بوضوح تفاجأ بأن ذلك الضيف الغـريب يجلس إلى جـانب والـده في الجهة المقابلة. تنهّد وأدار وجهه، وعاد إلى غيبوبته.

حين شفي الطفل تماماً راح يفكّر بطريقة يحمي بها العصافير، فقاده عقله النشيط المصدوم إلى حل وحيد لا ثاني له، وهو إحـراق الكـرم بكامله، فانهمك سـراً في جمع الحشـائش والعيـدان اليابسـة، وخلال يـومين كـان قد وضع أكوامـاً منها في كل أنحـاء الكـرم، وفي ظهـيرة اليـوم الثـالث غافل الجميـع، وسـرق علبة كـبريت من المطبخ، وانطلق إلى الكرم، وراح يقدح عيدان الثقاب، ويشعل بها الأكـوام اليابسـة، لم يعـرف أحد، ولم يقدّر أحد أن ذلك الطفل الوديع يمكن أن يحرق كرم والده الوحيد!

شعر عبد العليم بضيق في صـدره، وأنه في هـذه اللحظة يستنشق دخـان الحريـق، حتى أنّه شعر بدوار خفيـف، وأن الهـواء الـذي يـدخل إلى صـدره لا يكفي. فنهض على عجـل، ورمى الممرضة الـتي لم يرها بعبـارات تفيد أنه سـينتظر في الممـر. في تلك اللحظة أحسّ بالندم لأنه جاء إلى عيادة طبيب غدد، وقدّر أنه ربما كـان من الأفضل لو ذهب إلى عيادة طبيب صدرية. فقال مواسياً نفسه: ياالله كلها عيادات، وكلهم أطباء!

وبعد دقائق قليلة، استعاد عبد العليم نشاطه، فأشعل سيجارة، وراح يعب دخانها بنهم لا يتناسب مع أعوامه السبعين. وما إن انتهى منها حتى أشعل أخرى، وحين أنهى الثانية أشعل الثالثة مباشرة، وراح يراقب السطوح التي يطل عليها الطابق الثالث، لم يصدّق أن الصحون التلفزيونية استطاعت خلال عام أن تغطي أسطحة البنايات تماماً، ولم يصدّق أن بيوتاً من التنك ما زالت قائمة في وسط المدينة. وحين رأى سيدة قدّر أنها في مثل سنّه تنكش في حاوية القمامة طار صوابه، وسيطر عليه حزن طاغ، وشعر بارتخاء مفاصله، وبعد دقائق كانت ملابسه قد تبللت بعرق غزير، فجرّ نفسه وارتمى على كرسي صادفه في الممر. مرّ وقت وهو يسترخي مستسلماً استسلاماً تاماً للهمود، وحين فتح عينيه رأى رجلاً يقف أمامه. يا إله الكون إنه ذلك الرجل الأنيق الغريب نفسه، أما زال حياً حتى الآن؟ كم من العصافير قد اصطاد خلال تلك السنوات الطويلة؟ كيف يمكن أن يستمر ذلك؟ بغتة رأى لهب الحريق، وشمّ رائحته من جديد، ما من حل سوى أن يحرق البناية، والمدينة، والعالم! وقبل أن يتمكّن من قدح عود الثقاب تلقتّه رصاصة في صدره الأيمن، وخرجت من ظهره تاركة حِرقين صغيرين من الأمام والخلف.

# يوميات سائق تاكسي

أوقف خليل عبد الله أوّل سيارة صادفها، وأخذ مكانه ببطء إلى يمين السائق، ثم طلب منه أن ينقله إلى مقهى البستان في شارع بغداد. تردد السائق، واشتكى بصوت مسموع من الازدحام الذي لا يحتمل. وسأل خليلاً عن أي طريق يريد أن يأخذه. ورغم أنه استغرب سؤال السائق فقد أشار عليه أن يختار شارع التربية لأنه قصير ومباشر، فإن السائق لم يقتنع، واحتجّ بأن الحفريات في ساحة القطار تزيد الازدحام سوءاً. صحيح أن الطريق عبر دوار هارون طويل، ولكنه أقل إزعاجاً. استسلم خليل قائلاً: كما تريد. لكن السيارة الصغيرة انعطفت إلى اليسار، وأخذت مسارها في شارع التربية! كان رتل السيارات يمتد من أمام مديرية التربية على مد البصر، ولم يكن لأحد أن يقدّر بدقة متى يتحرّك، أو كم تحتاج السيارة لتجتاز مبنى نادي حطين. التفت السائق إلى زبونه، تأمله بدقة وحذر، ثم سأله عن عمله، ومن أين اشترى حقيبته السوداء الجميلة؟ كان خليل يرد بكلمات مبتورة غائمة، غير أن السائق اندفع بعبارات سريعة متدفقة عن حالة الشوارع، وكثرة السيارات الصغيرة، ومشاكل المرور، وسلطة الشرطة. فجأة حوّل كلامه على خليل نفسه، فأعلن أنه أحبه واحترمه لحظة رآه. وأنه في عمله يتمنى أحياناً أن يبقى الراكب معه طوال النهار، وأحياناً يودُّ أن ينزل فور صعوده إلى السيارة. جامله خليل بأن الركاب مثل السائقين بشر. منهم الطيب، ومنهم السيء. والحياة كانت دائماً تسير خليطاً من الأبيض والأسود. توتّر السائق فجأة وبدا عليه ضيق حاد، وأعلن بشكل مباشر فجّ أنه يخالف رأي زبونه الذي أحبه واحترمه لحظة رآه، وأردف: اسمع يا أستاذ أنا منذ عشر سنوات أدور في شوارع المدينة، وأعرف الناس وقصصهم، وأسرارهم. أنت تخدعك المظاهر. طيّب.. أمس ركبت معي صبية مهندمة، وما إن جلست في المقعد الخلفي حتى أخرجت هاتفها النقّال، وبدأت تتكلّم بصوت مسموع، قالت إنها أمس كانت تسهر في الميريديان، وأنها اليوم مدعوّة للعشاء في الشاطئ الأزرق. فجأة رنّ هاتفها، انفضحتْ، لم تكن تكلّم أحداً. أنا غضبت، وقلت لها: لماذا لم تقولي أمس أكلت سندويشة فلافل، أو صحن مسبّحة؟ لماذا تكذبين؟ ثم طردتها من السيارة دون أن آخذ منها أجرة. وقبل أن يعطي فرصة لخليل للتعليق تابع بعبارات سريعة متدفقة: منذ أسبوع طلع معي شاب. وما إن جلس حتى بدأ يحك جبينه، ثم أخرج شريطاً ووضعه في مسجلة السيارة دون أن يستأذنني، هل تعرف ماذا سجل على الشريط؟ يا سيدي موسيقى مسلسل الزير سالم. نعم موسيقى مسلسل الزير سالم. حتى أنني ظننته "قرباطياً" من أحفاد "جساس بن مرة"، وإذا بصاحبنا ينفي كل توقعاتي، خمّن السبب؟ يا سيدي أخبرني أن حبيبته سافرت إلى الخليج بعد أن أهدته هذا الشريط البديع! وهو يحمله في جيبه أينما ذهب. حتى أنه رفض أن يسمح لي بتسجيل نسخة عنه، هل تصدق ذلك؟ أنا أحببت ذلك الشاب وأشفقت عليه، وسامحته بالأجرة!

كان خليل عبد الله يتشاغل بالنظر إلى رتل السيارات أمامه، وبالنظر إلى السائق، كان شاباً في نهاية العقد الثالث من عمره كما قدّر، يرتدي ثياباً أنيقة، وقد سرّح شعره بعناية لا تخطئها العين. ومما فاجأ خليلاً هو أنه كان وسيماً على نحو يلفت الانتباه. وفجأة سأله بجدية هادئة فيما إذا كان يعمل في دائرة حكومية أو سواها إضافة إلى عمله كسائق. توتّر السائق من جديد، وبدا عليه ضيق حاد، وتساءل بشكل مباشر فج: لماذا؟ كلّنا أبناء تسعة؟ وهل مهنة السائق مسبّة؟ وهل يوحي شكلي بأنني غير محترم؟ سارع خليل بالاعتذار، وأوضح أنه تصادف أن ركب مع سائقين يعملون مهندسين أو متقاعدين. حتى أنه صادف سائقين كانت رتبهم عالية في الجيش، وأكد

بكل ما يستطيع من لطف وهدوء أن العمل نفسه شرف للإنسان، وأنه لا يفرّق بين سائق أو وزير، فالمهم الاستقامة والأخلاق.

عقّب السائق بصوت أقرب إلى الهمس: على كل حال أنا مسافر بعد أسبوع. معي فيزا إلى سويسرة، ولن أسوق سيارة أجرة حتى لو اضطررت لأن أشحذ على قارعة الطريق. لقد فسخت خطوبتي منذ يومين. خطيبتي كانت موظّفة. وكنت أوصلها بسيارتي هذه إلى مقرّ عملها، وأعود بها إلى منزلها في نهاية الدوام. ومنذ ثلاثة أيام فقط، اتصلت بي، وطلبت مني ألا أوصلها، لأنها ستذهب في سيارة زميلتها. يا سبحان الله ما أغرب المصادفات، في ذلك النهار بالذات، جاءني طلب دسم إلى بانياس، وبعد أن أوصلت الراكب قلت لنفسي: لماذا لا أتمشّى على شاطئ البحر؟ فمنذ سنوات وأنا أسمع عن جمال شاطئ بانياس دون أن أراه، هل تعرف يا أستاذ من صادفت هناك؟ أنا أقول لك: لقد وجدت خطيبتي الكريمة مع شاب لا أعرفه. وهل تعرف ماذا فعلت؟ فقط خلعت الخاتم، وقدمته لها، وطلبت منها أن تخبر أهلها أنها هي التي فسخت الخطوبة كيلا أسيء لها. بعد خمس سنوات من المماطلات، والحجج، والهدايا، كانت هذه هي النتيجة. على كل حال، أنا مسافر بعد أسبوع. معي فيزا إلى سويسرة، ولن أقود سيارة أجرة حتى لو اضطررت لأن أشحذ على قارعة الطريق. ماذا ينقصني آا؟ اليوم أخذتني صبية أحلى من الشهد، تقول للقمر قم لأقعد مكانك، أخذتني إلى بيتها، أخذتني، نعم إلى بيتها لقاء خمسمائة ليرة سورية، وكانت مخطوبة. وقبلها بأيام فتاة أخرى مخطوبة أيضاً، وغيرهما كثيرات، على كل حال معي فيزا إلى سويسرا. كان خليل يستمع مشدوهاً صامتاً وهو يتأمّل وجه السائق. وفجأة اجتاحه رعب غريب، ماذا لو قرّر أن يصدم عاموداً، أو سيارة، أو ماراً، أو أي شيء آخر؟ ماذا لو سحب عصا وضربه بها؟ ماذا لو أخرج مسدساً وأطلق الرصاص عليه؟ كان وجه السائق يفور بالغضب والاحمرار. وكانت عيناه تبدوان فارغتين، وجسمه يرتجف ارتجافاً عنيفاً مخيفاً، بينما كانت السيارة محاصرة بسيل من السيارات في سوق الخضرة. شعر خليل بأنه عاجز تماماً، ومع ذلك فقد استجمع ما تبقّى من قواه المنهارة، وقال للسائق: أنا كاتب، وأنوي أن أكتب مسلسلاً يصوِّر يوميات سائق تاكسي. وسأعرض فيه مشاكل عديدة تواجهونها أنت وزملاؤك. وقبل أن ينهي جملته الأخيرة كان السائق قد اجتاز الإشارة، ودخل في ساحة أوغاريت بسرعة هائلة، واتجه نحو فتاة تحمل حقيبة رمادية بيدها اليمنى، ومن الغريب أن الكاتب خليل عبد الله رأى خاتم خطبة في بنصرها اليمنى قبل أن تصدمها التاكسي.

# أرجوحة الانتظـار

كان اليوم الثلاثاء، والشهر تشرين الثاني، والمدينة اللاذقية.

استيقظ سـليم هيفا في السادسة تمامـاً، وعلى غـير عادته أسـرع في إعـداد قهوته الصـباحية، وفي احتسـائها، وفي تـدخين لفـائف التبغ الخمس، ثم توجّه إلى الحمّـام، وحلق شعر لحيته، وغسل وجهه، وارتدى ملابسه التي رتّبها مساء يوم الإثنين من شهر تشرين الثاني في مدينة اللاذقية.

كان يمرّ على غرفة ابنه مضر التي تتوسّـط غرفـتي الأب والأم. وفي كل مـرة كـان ينظر فيها إلى عقارب ساعته، ويقول لنفسه: مازال الوقت مبِّكراً، يمكنه أن ينام حـتى السابعة والنصف، فموعدنا مع رئيس اللجنة بين الثامنة والنصف والتاسعة إلا ربعاً.

كان مضر متوتِّراً حين نهض من فراشه في السـاعة السـابعة والنصـف، وحين توجّه إلى الحمام، وحين غسل وجهه، واحتسى كأساً كبيرة من الموز بـالحليب أعدّته والدته على عجــل، ولقد تبــادل جملاً مبتــورة مع والــده، كــرّر خلالها الأب أنه متأكّد من أن صديقه اتصل برئيس اللجنة، وأن ذلك الرئيس شدّد على معرفته باسم المربي القـدير سليم هيفا، بل ذكر أنه قرأ بعضاً من كتبه في التربية، وأنه سـعيد باسـتقباله غـداً، وإنه لن يتركه ينتظر دقيقة واحدة.

كما أكّد رئيس اللجنة بأنه سـينادي على اسـمه بين الثامنة والنصـف، والتاسـعة إلا ربعاً.

رضخ فجر بامتعاض لتأكيدات والده، ورافقه في سيارة أجرة إلى مقرّ اللجنة جنـوب المشفى الوطني. وصلا في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة تمامـاً، وعلى الفـور سلّما إضـبارة إحالة شـعبة تجنيد جبلـة، وكل الفحوصـات الطبية للـدم، والكليـتين، ومعـايرة خميرة الفولين (G6PD). كان الشاب الذي اسـتلم الإضـبارة يحتـلّ مـدخل البـاب إلى مقرّ اللجنة. ربما كان عسكرياً عاديّاً، ولكن سليم هيفا لم يستطع تحديد رتبته لأنه كان يرتدي ثيابـاً مدنيـة. كما إنه كـان يبـدو يافعـاً، مرحـاً، رغم أنه لا يـوحي بـأي شـكل من أشكال الثقة. وشيئاً فشيئاً اكتظّ الشارع المقابل لباب مقرّ اللجنة بالشباب، وبين حين وآخر كانت تصل سيّارة فارهة لتأخذ مكانها على الرصيف، وليدخل صـاحبها أو سـائقها مع حقيبته إلى الداخل. وكان المشهد كلّه يتكامل بصمت وجدّية مصطنعة ووقار زائف.

وفي التاسعة تماماً فتح الباب على مصـراعيه، وتـدفّق الشـباب إلى الباحة الداخلية الضيقة، وعن عمد عدّ سليم هيفا الشباب مسـتثنياً مـرافقيهم حـتى تجـاوز العد مائـة، عندئذ أحسّ بـالقرف، وتوقّف عن العـد، وانصـرف لمراقبة أشـكال الموجـودين، ثم لمراقبة البناء، فرأى فجأة سيّدة تتكئ على شباك الطـابق الثـاني، وتقضم سندويشـة، وبعد لحظـات لمحتـه، فـأدارت ظهرها واختفت. شـعر سـليم هيفا بالإهانـة، ولكنه لم يستطع أن يحسم في سبب اختفائهـا، فقـدر أنها خجلت من أكل رغيفها عاريـاً من أية إضافات، وخجل من نفسه عنـدما فكّر أنها قد تكـون اعتبرته يتلصص عليهـا، ويتحـرّش بها. ولكي يخرج من اضطرابه راح يراقب أغصان شجرة الـتين الـتي اجتـازت الجـدار، وتدلت على السـاحة الـتي تغص بالشـباب المنتظـرين. ما لفت انتبـاه سـليم هيفا ذلك الشاب الـذي ادعى أنه جـاء من صـافيتا، أي من مسـافة تزيد على مائة كيلومـتر، وأن اللجنة أجّلته من الثلاثاء الماضي إلى اليوم، بعدئذ رفع الشـاب صـورة شـعاعية، وقـال لمن حوله ضـاحكاً: انظـروا هـذه العظمة الزائـدة سـتمنّ عليّ بخدمة ثابتـة. وقبل أن يعيدها إلى المصنف كان قد سأل أكـثر من واحد عن اسـمه، واسم قريتـه، ومنطقتـه. وخلال أقل من ربع ساعة كان قد تبـادل الحـديث مع أكـثر من عشـرين شـاباً. وأخـيراً توجّه إلى الزاوية وجلس على كرسي مكسور، وبدأ يطرح الأسئلة، والأحاجي، والنكات

على الـذين تحلّقـوا حولـه، حـتى أن سـليم نفسه دخل معه في ممازحـات، وفي حـلّ الألغاز، وفي التعليق على الزحام واللجنة والواسطة. فجأة سأل ذلك الشاب أحدهم:

ـ ماذا سقط عليك؟ والغريب ان الرجل أجاب بجدية:

ـ خيمة قرميد.

ـ ولم تمت؟

ـ لا، لماذا تستغرب؟ أمس احترقت سيارة في قريتنا، مات واحد ونجا آخر.

عندئذ التفت الشاب إلى شخص يجلس بجواره وسأله:

ـ وأنت كيف ستعفيك اللجنة؟ ردّ عليه:

ـ أنا ضـربتني سـيارة، وعلى إثر ذلك أجـروا لي عشر عمليـات جراحية في وجهي، ولكن الأهم من ذلك أن تحزر هذه الحزّورة: أجـروا دراسة على جينـات فيل كـان وزنه ثلاثة أطنان، فأعطوه دواء فأصبح وزنه أربعة أطنان، ثم وضعوا عقداً في عنقه فأصـبح وزنه خمسة أطنـان، بعدئذ وضـعوه في حفـرة عمقها عشـرون مـتراً، وأنت معك حبل طوله عشرة أمتار فقط، فكيف ستستطيع إخراج ذلك الفيل من تلك الحفرة؟

علا اللغط بين المجموعة، وتطايرت التعليقات، والنكات، وبعض الكلمـات الجارحـة، ولكن سـليم هيفا لم يتـدخّل، ولم يعلّق بكلمة فقد أخذ تـوتره خطـاً صـاعداً، وازداد شعوره بالارتباك والغضب حين قال ابنه مضر:

ـ يبدو أن صديقك لم يتصل برئيس اللجنة، وحتى إذا كان قد اتصل فيبـدو أنك لست على باله لا أنت، ولا صديقك. كانت السـاعة وقتئذ قد اجتـازت العاشـرة. وكـان سـليم هيفا قد بدأ يشـعر بـوخز الألم في منطقة "فتاقـه" الأيسـر، ولـذلك سـارع إلى كرسي فـارغ بجانبه وجلس عليـه، واكتفى بمراقبة الحشـد، وسـماع الأصـوات المتنـاثرة هنـا، وهناك.

لاحظ سليم أن بعضـهم كـان يـدخل بلا دور، كما لاحظ أن الأسـماء المعلنة للـدخول كانت ما زالت لشبان أجّلتهم اللجنة من الأسبوع الماضي. فكّر أن يطلب من الحـارس أو الشـرطي العسـكري تبليغ رئيس اللجنة بوجـوده، ولكنه رفض الخـاطر على الفـور، وشعر بالإهانة والمـرارة. هو المـربي الـذي قضى ثلاثين عامـاً أمـام السـبورة، يهـاجم الواسـطة، وأصـلها، وفصـلها، وأشـكالها، وألوانهـا، ينهـار الآن بعد ثلاث سـاعات من الانتظار؟ هو الكاتب الذي أصدر عشرين كتاباً في التربية، والموقـف، والواجبـات، يلجأ إلى توصـية لكي يسـرِّعوا دوره؟ لا، ليس سـليم هيفا من يفعل ذلـك! ولكن ابنه فجر أمامه.. إنه يقرأ داخله، ويخيّل إليه أنه يسخر منه عميقاً، ويسخر من صديقه لأنه يـوقن بأن الفساد هو أساس كل شيء. كبت سليم عجزه، وغضبه، واكتفى بعبـارات التطمين الفارغة التي كان يصبها في أذني ابنه بين فترة وأخرى. بغتة لاحظ الكاتب المـربي أن العدد يتضـاءل، وأن الآخـرين ينصـرفون في عجالـة. وحين التفت إلى سـاعته انـدهش لأنها كانت قد تجـاوزت الثانية بعد الظهـر. وتأكّد أن اللجنة قد أنهت عملها لهـذا اليـوم، فهبّ واقفاً عن كرسيّه، وتوجّه بخطوات واسعة سريعة نحو البوّاب. وما إن وصل حتى قال له بعبارات لاهثة سريعة:

ـ اسمح يا بني، أنا لا أريد واسطة، عمري ما لجأت إلى الواسـطة، ولكن من فضـلك قل للسيّد العميد جهاد حنيفة رئيس اللجنة أن سـليم هيفا ينتظـره منذ السـاعة الثامنة والنصف هنا أمام هذا الباب.

ارتسمت علامات الدهشة على وجه الحاجب، وتلعثم قليلاً، ثم سـأل سـليم هيفا عن أي عميد يتحدّث، وعن أي جهاد حنيفـة؟ فهو منذ سـتة أشـهر يعمل حاجبـاً على البـاب

نفسـه، ولكنه لم يسـمع عن طـبيب بهـذا الاسم شـارك بأعمـال اللجنـة! وتحت إلحـاح سليم أخرج الرجل قائمة بأسماء أعضاء اللجنة وفرده أمامه.

قرأ سليم هيفا الورقة المفرودة أمامه، ونظر حواليه. كان وحيداً أمام البـاب، لا أحد في السـاحة، ولا امـرأة في الشـرفة، حـتى ابنه فجر لم يكن موجـوداً. عندئذ اسـتدار ببطء، وخطا نحو البوابة الخارجية، وهو يقول لنفسه:

ـ ولكن صديقي أكّد لي أن العميد جهـاد حنيفـة، سـينادي عليَّ بين الثامنة والنصـف، والتاسعة إلا ربعاً.

# حديقة زكي الأرسوزي

كـان أحمد عابـدين أمـام مبـنى أمانة العاصـمة بدمشق عنـدما رأى زكي الأرسـوزي على الرصـيف المقابـل، فشـعر بغبطة مفاجئـة، فالإنسـان مـازال حيا يـرزق، ومـازال بشيخوخته المبكرة يبدو وسيماً، حتى أنه شعر أن "الشـابو" الـذي يلبسه الأسـتاذ على رأسه يضفي عليه وقاراً فكرياً نادراً. أسرع أحمد عابدين باجتياز الشـارع ولحق بـزكي الأرسوزي، وتابع باتجاه مقهى "الهافانا" حيث تعود الأستاذ أن يجلس في حلقة محبيـه، والمعجبين بشخصيته. وعندما وصل لم يجده هناك، فسأل النادل عنه بعبارات متلاحقة خائبة. ولكنّ النادل هز كتفيه، ولم يردّ بكلمة واحدة.

تصاعد غضب مفاجئ في كيان أحمد عابدين، فاتجه إلى طاولة مدير المقهى، وكـرر عليه السؤال عن زكي الأرسوزي. دعاه ذلك الأربعيـني للجلـوس، وشـرح له بهـدوء أن الأرسوزي لم يحضر اليـوم إلى المقهى، وأنه لن يحضر أبـداً، أما إذا أراد أن يقابله فما عليه إلا أن يذهب إلى حديقة المزرعة، وهناك سيجده وحيداً يجلس على منصة عاليـة، ويبشر بأفكاره، ونظرياته.

غادر أحمد عابدين المقهى عدواً، حـتى وصل إلى البـاب الجنـوبي لحديقة المزرعـة، وكان أول ما شاهده حجر رخام مثبت إلى يسار البوابة، كتب عليه بالأسود:

«زكي الأرسوزي: مفكر وفيلسوف ومناضل، ولد عام 1900م، من مؤسسي عصبة العمل القومي، أصدر جريدة العروبة في أنطاكيـة، كـان ضد فصل لـواء الاسـكندرون، تـوفي عـام 1968م». مـرة ثانية شـعر أحمد عابـدين بالغضب على الكـاتب، وتسـاءل بمــرارة عن كتابة همــزة "الاســكندرون" هل هي تحت الألــف، أم فوقــه، وقــرر أن يستفسر من الأستاذ نفسه عندما يقابله بعد قليل. بلا جهد وجد زكي الأرسوزي يجلس فعلاً على منصــة، يــدير ظهــره لــوزارة الماليــة، ورئاسة مجلس الــوزراء، ويتجه نحو الشمال. ولكن المفاجأة أن الأستاذ لم يرد عليه تحية الضـيف. كـان يمد يـده اليسـرى بصورة متخشبة، وكذلك اليمنى. وكان يلبس حذاء أشبه بالبوط، برباطات بارزة كريهة. لم يصــدق أحمد عابــدين أن الشــخص الــذي يقابله هو زكي الأرســوزي، فهو يعرفه شخصاً قريبـاً إلى القلب، بأناقتـه، وابتسـامته الدافئـة، ورقيِّهِ في الحـديث والمعاملـة. قـال في نفسه لابد أن الشـخص الـذي يجلس على هـذا النحو ليس زكي الأرسـوزي، وربما كان شخصاً ينتحل شكله ليسيء إلى سمعته، وعنـدما اقـترب أكـثر، ليـدقق في الملامح البلهاء، قرأ على المنصة العبارات التالية:

" زكي الأرسوزي
أنطاكية - دمشق
1319 - 1388هـ
1901 - 1968م"

عندئذ حدث أحمد عابدين نفسه بكآبـة، كيف يمكن أن يصـغر زكي الأرسـوزي سـنة كاملة عبر عشرة أمتار؟ هذا يعني أنـني صـغرت عامـاً كـاملاً أيضـاً؟ ثم لمـاذا لم يشر الكاتب على حجر الرخام بكلمة واحدة عن حياة زكي الأرسوزي منذ عام 1939 وحتى 1968م؟ ورغم فيض الأسـئلة الـتي لم تعـثر على جـواب قـرر أحمد عابـدين أن يقابل زكي الأرسوزي نفسه، ليضع النقاط على الحروف العارية. وقبل أن يخرج من الحديقة سأل أحد المارة عن اتجاه باب الحديقـة، فأفـاده أنه غـرب شـرق، ولأن اللعبة أعجبته سأل عاملاً كان يجمع أوراق الأشجار الـتي بعثرها هـواء الخريف فـأخبره بإسـهاب عن انحراف الشمس، ولم يؤكد أي جهة، وهكذا دخل أحمد عابـدين في تسـلية دامت أكـثر

من ثلاثين دقيقــة، يســأل كل عــابر ســبيل عن الجهــات الأربــع، ويســتمع إلى إجابــات متناقضة من شخص إلى آخر.

خمّن أحمد عابدين أن زكي الأرسوزي يجلس في مكتبة، ولاشك أنه ينقب في أصول الأفعال العربية، وجذورها، وأصواتها، ومعانيها. وعلى الفور توجه إلى المكتبة في أول شارع "مرشد خاطر". وبعد أقل من دقيقتين كان يقف أمام الحارس، قرب البوابة الرئيسية. وبعد التحية والسؤال أفهمه الحارس أن الدخول ممنوع، وأن عليه أن يقدم طلباً رسمياً لرؤية أي شخص في الداخل، أسرع أحمد عابدين، وكتب طلباً، ولصق عليه طابعاً بعشر ليرات سورية، وسلمه لرئيس مكتب الاستقبال. وبعد مكالمات عدة بالهاتف أفهمه الموظف أن دخوله الآن مستحيل، لأسباب إدارية. والأفضل أن يعود بعد نصف ساعة.

رضخ أحمد عابــدين، وقضى الــدقائق الثلاثين وهو يلتهم فطــائر الزعــتر، والمحمــرة والجبنة من الفرن القريب من وزارة الماليــة، بعــدها تمشى على الرصــيف وهو يــدخن حتى وصل إلى مدخل البنك المركزي السوري، فعاد على الرصــيف نفسه إلى المكتبة في أول شارع "مرشد الخاطر".

عندما أراد أحمد عابدين أن يجتاز الشارع كــان ســيل الســيارات يتــدفق من الشــرق بسرعة جنونيــة، وفجــأة انشــدت أعصــابه، وتــوتر وهو يــراقب شــاباً في العشــرين من عمـــره يعـــبر أمامـــه، وحين وصل ذلك الشـــاب إلى منتصف الشـــارع، وسط ســـيل السيارات، توقف لحظات، وانعطف عائداً، حتى حاذى أحمد عابدين فحياه برقة، وقــال له: إياك أن تخبرهم بأنك تعرفني، ثم تابع سيره السريع باتجــاه البنك المركــزي. ورغم أنه لم يكن يشبه زكي الأرسوزي بشيء. غير أن جملته الطائشة حفزت قلقاً ملحاً في أعماق أحمد عابدين. فلقد تصور أن يكون الأستاذ في خطر، وقد يكــون معتقلاً، وليس في المكتبة كما تــوهم، وربما لهــذا الســبب منعــوه من الــدخول، ليتشــاوروا في تلفيق إجابة مدروسة ومحددة.

لا يعرف أحمد عابدين كم بقي واقفاً في مكانه يناقش المســألة، ولكن ما يعرفه أنه قــرر صــرف النظر عن مقابلة الأســتاذ في هــذا اليــوم، وأن يعــود إلى بيته ريثما يهتــدي لطريقة سليمة للقاء بزكي الأرسوزي.

قضى أحمد عابدين نهاره متسكعاً بين "الصالحية"، و"الحمراء"، و"أبو رمانــة". دون أن يأكل شيئاً، أو يشرب شيئاً. وكان يشعل السيجارة من الســيجارة وهو يفكّر برؤيته لزكي الأرســوزي، واختفائــه، وحجر الرخــام، والرجل المزيف الــذي يجلس على منصة في حديقة المزرعـــة. وبعد أن هـــده الإرهـــاق، والجـــوع، والعطش. اتجه إلى بيته في الروضـــة، مقابل وزارة الثقافـــة، حين أدار المفتــاح بالبــاب، انفتح من قبل أحد ما في الداخل، وللمفاجئة الصاعقة كان زكي الأرسوزي يقف وجهاً لوجه أمام أحمد عابدين.

صرخ أحمد: أنت هنا يا أستاذ؟! كدت أموت من الخوف عليك.

ربتّ الأســتاذ على كتف أحمد وأدخله إلى غرفة نومــه، وطمأنــه، ثم نصــحه أن ينــام جيداً على أن يلتقيا غداً في مقهى الهافانا. وقبل أن يخرج أضاف الأستاذ: بالمناسبة يا أحمد لماذا قدمت طلباً لمقابلتي في المكتبة؟ خذ هــذا طلبــك، لقد رفضه مكتب الأمن لأسباب أمنية لا أعرفها. وطلبوا مني أن أنبهك على أن تصرفات من هذا النــوع يعــاقب عليها القانون. وقبل أن يــردّ أحمد عابــدين بكلمــة، كــان بــاب الشــقة قد صــفق بقــوة، وسمع وقع خطوات صاخبة على الدرج.

# ضباب حول مقبرة

حين أعاد صـافي محفـوض سـماعة الهـاتف إلى مكانها شـعر بالارتبـاك. ولام نفسه على برودته في الحـديث مع زميله القـديم ثـائر زنـداقي. وفكر للحظـات أن يتصل به ليخبره أنه جاهز لملاقاته على الفور، وأنه سـيلغي عـادة النـوم بعد الظهر الـتي أدمنها منذ ثلاثين سنة. وكعادته اكتفى بهذا القـدر من اللـوم والمحاسـبة، واتجه إلى سـريره. كان صافي محفوض يجد نفسه في اللحظات الأخيرة التي تسبق الإغفاءة. ودائماً كان يؤجل حل مشكلاته إلى تلك اللحظات نفسـها، وكثـيراً ما قـال لأصـحابه ومعارفـه، أنه موجود في البرزخ بين اليقظة والنوم. وفي هذا اليوم بالذات، من شـهر تشـرين الأول يجد نفسه في أمس الحاجة لفك لغز اتصال زميله ثائر زنداقي. هو يذكر بوضـوح أنهما درسا معــاً في الصف نفســه، وفي المقعد نفسه في ثانوية أحمد مريــود بــالقنيطرة، وبسهولة يحـدد الصـفين الثـاني والثـالث الثـانوي من عـامي 1963 و1964 وبعد ذلك التاريخ لم يلتقيا أبداً. صافي محفوض لا يستطيع أن يجد أي جواب لاتصال ذلك الزميل الذي غادره منذ ثلاثين عاماً. ومما أثـار حيرته أكـثر أن كاشف الهـاتف أظهر رقمـاً من مدينته نفسها. وهذا يعني أنهما معاً يسكنان في حيز جغرافي واحد، فلمـاذا لم يحـاول ثائر زنداقي الاتصال به من قبل؟ هو يعرف أن عادات من هذا النوع تحصل في بلــدان متقدمة كاليابان مثلاً، فكثيراً ما قرأ إعلانات في صحف محلية هنـاك عن دعـوة لتلاميذ الصف الثــالث الابتــدائي في مدرسة كــذا عــام 1961 مثلاً لكي يجتمعــوا في ذلك المطعم في طوكيو. أما أن يتصل به زميل غادره منذ ثلاثين عاماً فإن المسـألة تحتـاج إلى أكثر من سؤال، وأكثر من إجابة.

حين هبط صافي محفوض درج البناية التي يسكنها شـاهد من شـباك الـدرج سـيارة تنتظر أمام المدخل، وما إن خـرج من البـاب الحديـدي الكبـير حـتى وجد نفسه يعـانق زميله القديم ثائر زنداقي. ركب إلى جانبه، وتحركت السيارة. قال له ثــائر إنه يريد أن يأخذه في مشوار لمدة ساعة، وعندما استفسر متلعثماً عن السبب، أضاف الزميل أنه رآه في منامه مرتين في يومين متتاليين.

ساد صمت ثقيل طوال نصف سـاعة، قطعه تعليق صـافي محفـوض: هل لاحظت يا أستاذ ثائر أنني معك منذ نصف ساعة. ولم أسألك إلى أين سنذهب. رد صديقه بمــرح: أنا مسرور للغاية لأنك لم تسأل. كانت السيارة قد اجتـازت جسر جبلة باتجـاه بانيـاس حين قال صـافي: انتبه يا ثـائر. لست عـاقلاً فقـط، بل أنا ذكي أيضـاً أنت تأخـذني إلى قريتك.

ابتسم ثائر، وأكد استنتاج زميله منذ ثلاثين عامـاً. القرية مزرعة صـغيرة معلقة على قمة تلة تشبه الجبل، وعلى مدخلها قرأ صافي محفـوض اسـمها مكتوبـاً بوضـوح على شاخصة حديديــة: "شـير الغـرام" خجل من نفسه لأنه لم يكن يعـرف بوجـود قرية أو مزرعة في محافظة اللاذقية بهـذا الاسـم. وكتم خجله في داخلـه، وهو يغـالب صـمته، وينتظر كلامـاً من زميله الـذي بـدا مرتبكـاً ومنهمكـاً بقيـادة سـيارته المتواضـعة عـبر منعطفات حادة ملتوية بشكل مخيف. وأخيراً توقفت السيارة قـرب سـنديانة عملاقـة. وعلى مسافة أمتار رأى صافي محفوض بيتاً صغيراً تكسو جدرانه حصى صـغيرة بنيـة. وأمامه شرفة لا تتجاوز مسـاحتها عشـرة أمتـار مربعـة، ولكن سـنديانة أخـرى عملاقة كانت تمد أغصانها لتغطي البناء بكامله. كلاهما كان مرتبكاً، وصامتاً. وما إن وصلا، حتى افتعل صافي أسئلة عن مسـاحة الـبيت والشـرفة والأشـجار. وكـان رد ثـائر قاطعـاً لا يفسح مجالاً للتأويل والاجتهاد. فهو قد حافظ على البيت كما تركه له والده تماماً، وأن كل مافعله أنه زينه بنفسه بتلك الحصى البنيــة، حصــوة، حصــوة. كــانت الســهرة

متواضعة. انضاف إليها السيد أبو أسد، صديق والد ثائر كما تبين عـبر أحـاديث متعرجة ومبعثرة. ومع كل اللحوم المشوية الـتي ملأت الطاولة لم يسـتطع صـافي أن يكتشف معنى هذه الـدعوة، ولا إلى أين سـينتهي به هـذا الليل الغـامض. ما حـرك داخله بقـوة ومتعة هو أنه استمع بلا تخطيط إلى نصوص شـعرية عالية لصـديقه القـديم. ولقد عـبر بانفعال عن إعجابه الشديد بما يسمعه، حـتى أنه لام صـاحبه لأنه لم ينشر نصوصه في وسائل الإعلام ولم يطبعها في كتاب. في طريق العودة تدفق ثائر زنداقي بالكلام. قال كثيراً هنا، وهناك عن العمل، والمال، والملكيـة، والأدب. كـان كنهر يصر على أن يحفر مجراه لأول مرة أمام صـديقه. وفجـأة انتقل للحـديث عن والـده. وسـأل صـديقه، هل تعلم أن والدي توفي بحادث سيارة في اليـوم نفسه الـذي تـوفي فيه والـدك بالسـكتة القلبية؟ ودون أن ينتظر جوابـاً: نعم كنت في الصف الثـاني الإعـدادي. رحل في الأول من تشرين الثاني. وفي كل عام أنتظر رحيلي في اليوم نفسه. وأنت أيضـاً تـؤمن أنك مهدد بـالموت في الموعد نفسـه. لا تقل لي إنك لا تخـاف من المـوت؟ لقد رأيتك في منامي ليلتين متتاليتين، وعـرفت كم أنت مرعـوب من تـاريخ وفـاة والـدك. أنا أعـرف الفرق بينهما. والدي كان غريباً لا يعرف ماذا يريد، ولذلك درس الأدب العـربي وتخـرج في الجامعـة، ثم درس الأدب الإنكلـيزي، ثم الحقـوق، ثم انتسب إلى كلية الفلسـفة، ولكنه رحل قبل أن ينهي دراسـته تلـك. أنا لم أعرفه تمامـاً. كنت صـغيراً. وأظن أنه غادرني مبكراً لكي لا أفهمه تماماً، وترك لي أن أكتشفه شـيئاً فشـيئاً. وأنت يا صـافي محفوض تعاني من المشكلة نفسها فقد رأيتك في منـامي ليلـتين متتـاليتين. لقد رحل والدك دون أن تفهمه تماماً، وترك لك أن تكتشفه شيئاً فشـيئاً. ولهـذا السـبب، لا أريد أن أناقشك بشكل وفاة والدينا، أو في فترتي رحيلهمـا. أنا دعوتك لكي أحـذرك. ولكي لا تذهب بك الظنون بعيداً. سأقول لك مالا تعرفـه. هل تـذكر أسـماء أصـدقائك الأربعة في الجامعة؟ لا شك أنك تذكرهم بوضوح. لقد ماتوا واحداً بعد الآخر. تمامـاً كما مـات أصدقائي الأربعة في مرحلة دراستي الجامعية. أنت مازلت حياً حتى الآن. وأنا ما زلت حياً حتى الآن. هل سألت نفسك ذات مرة ما معنى ذلك كله؟ أنا لم أتصل بك لأخيفك، أو لأزعجـك. أنا اتصـلت بك لأنك تشـبهني كثـيراً، أو أنا أشـبهك كثـيراً. لقد تيقنت من الشبه بيننا منذ زمن بعيد، عندما كنا طالبين في ثانوية أحمد مريود بـالقنيطرة. أنا أريد أن أنبهك. بل قل أحذرك. بعد عشرة أيـام سـتحل ذكـرى رحيل والـدك، ووالـدي. فهل تعدني أن نسهر معاً، وإذا كان لابد من موتنا أن نموت معاً.

# حكايات غير عابرة

## 1 - صنوبرة

كان يقف متكئاً على جذع صنوبرة عملاقة، وكانت تقابله متّكئة على الجذع الشـقيق للصنوبرة. هو يتأمل وجهها بشغف، وهي تطرق وتركز نظرها بين قدميها. مرت دقـائق طويلة لا يعرف عددها، وهي لا تعرف، خرج من صمته وسألها متلعثماً: أليس جميلاً أن يحب الإنسان؟ ردت عليه سائلة: ما رأيك أنت؟ أجاب كمن عثر على كـنز: جميل جـداً. قالت له: إذا لماذا تسألني؟. وقبل أن تجف الكلمة الأخـيرة على شـفتيها، تقـدم وطبع قبلة خفيفة على خدها. انفجرت ضاحكة، وانطلقت تجري بين أشجار الغابة الواسعة.

## 2 - فانـوس

كـان يجلس تحت شـجرة الـدلب يعـزف على ربابته وحيـداً، صـادف أن مـرت على فرس والـدها تحت الشـجرة نفسـها. توقف عن العـزف وتـوقفت عن السـير. صـمت، وصمتت. وأخيراً قالت له: أنت ماجد. أنت ابن عازف الربابة. فقال لهـا: وأنت مها ابنة الآغا. ابتسمت، وابتسم. عرف أنها اخترقت كل خلية فيه، وعـرفت أنه صـعق كل خلية فيها. بدا كل منهما واضحاً للآخر من الداخل. ولأنها تركب فرساً يعرفها أهالي المنطقة جميعـاً، تجـرّأت، وقـالت لـه: انتبه أنا مريضة بالسـل. وقف وردّ عليهـا: سـوف أغـار. أضافت مها: سأشعل الفانوس لك على سطح قصرنا كلما غـاب القمر فـردّ: سأشـعل لك الفانوس على سطح كوخنا كلما غاب القمر.

كـان قصـرها على قمة الجبل وكـان كوخه على قمة الجبل المقابـل. وفي كل ليلة ظلماء كان أهالي المنطقة يشاهدون فانوساً يضيء على قمة كل جبل.

مر شـهر وآخر وفصل وآخر فـانوس يضـيء على قمة الجبل الجنـوبي وآخر يضـيء على قمة الجبل الشمالي، وانقضت سنة. كان يسهر كل ليلة حـتى يخفي نـور الصـباح ضوء فانوسه. وفي ليلة عاصفة شتوية أضاء فـانوس واحـد، يجلس بجانبه شـاب يبكي وهو يعزف على ربابته.

## 3 – عشــق

قلْ لها يا إياسْ<br>
سقطت نجمة عاشقة<br>
و اعتراها اليباسْ.

## 4 – نشــوة

حدثتني الكاتبة المعروفة نجلاء صبح:

كـان الـوقت ضـحى وكنت أقف تحت واقية موقف البـاص. والسـماء تمطر بغـزارة نادرة في بغداد. بينما كان شارع الرشيد يزدحم بالسيارات والمـارة، والـريح الشـرقية

تعصف بكل قســوتها، قارسة تلسع الوجــوه كــالإبر. وشــيئاً فشــيئاً اكتظ المكــان بــالمنتظرين. فجــأة أحسست بجسد يلتصق بي من الخلــف. وكــان أول ما وصــلني الدفء، ثم رعشة صاعقة اجتاحت خلايا جسـدي كلهـا. لم يتحـرك صـاحب ذلك الجسد الساخن الواقف خلفي، ولم أتحرك. لم يتكلم، ولم أتكلم. لم اعـترض فـازداد التصـاقاً بي. كنت مستسلمة لنشوة طاغية تسيطر علي بحرارتها وغرابتها. وكـان أول ما تمنيته أن يتـأخر وصـول الحافلـة، وأنا أعـرف أنها ستصل في أية لحظـة. وتمـنيت أن يتوقف الزمن، وأن يطول وقوفنا هكذا إلى أن أذوب تماماً.

كـان ذلك قبل عشــرين عامــاً! وأنا أرسم لـذلك الرجل كل يــوم شــكلاً، وأمحــوه، وأشتهي دائماً، وأنا أنتظر أي حافلة، أن أحس به يلتصق بجسدي من الخلف.

عرفت فيما بعد كم خسرت لأنني لم ألتفت إلى الوراء لأحفظ شـكل وجهه وشـعره ويديه وقامته، وها أنا ذي مازلت منذ عشرين عامـاً ارسم كل يـوم شـكل ذلك الرجـل، وأمحوه؛ لأعيد رسمه مرة أخرى.

## 5 - مذاق العنب

كان يتمدد شبه عار على سريره منهمكاً بخيالات فتى في السادسة عشرة من عمره. لم تكن والدته في البيت، وكان والده مسافراً. هو لم يترك باب البيت مفتوحاً، سمعه ينغلق فظن أن والدته قد عادت من زيارتها. وسمع حركة في المطبخ ولم يتحرك، وسمع خطوات تتجه نحو غرفته المضاءة، ولم يتكلم. باغته أن يرى ابنة الجيران تدخل ومعها عنقود عنب أسود. حيّته وقالت له: أمي أرسلت لكم صحناً من العنب. وتقدمت. كانت تلبس معطفاً منزلياً خمرياً. وحين وصلت إلى السرير فكت زنار المعطف، فانكشف صدرها العامر، وشفت ثيابها عن جسد ناضج يتجاوز العشرين. أخذت حبة ووضعتها في فمه، وأردفت أخرى، وأخرى، وهو يمضغها كمن مسه خدر مسيطر. وحين لامست شفتيه سخونة حلمتها شعر بدوار، وغامت عيناه، واجتاحه شلل لا يرحم؛ ثم غاب عن الدنيا بما فيها.

كانت ابنة جيرانه، وكان عادل فضة ابن جيرانهـا. ومـرت الأيـام والشـهور والسـنون وهو يحاول أن يحظى بخلوة أخـرى، ولكنه فشل طـوال سـنوات عمـره الأربعين. ومع كل فصل صيف كان كلما أكل حبة عنب سوداء مضغها ببطء كمن مسه خدر مسـيطر، ويشعر بدوار، وتغيم عيناه، ويجتاحه شلل لا يرحم، ثم يغيب عن الدنيا بما فيها.

# فهرس

كتب للمؤلف

- إشارات متنافرة على وجه الحاضر ـ شعر ـ دمشق 1970
- لعينيك ما أشتهي أن يكون ـ شعر ـ دمشق 1978
- الجمر ـ شعر ـ دمشق 1984
- شتاء الجنون ـ شعر ـ دمشق 1993
- أغاني الطفولة ـ شعر للأطفال ـ دمشق 1994
- قصيدة هيروشيما ـ شعر ـ دمشق 2001 (صدر النص العربي مع ترجمته للإنكليزية واليابانية في كتاب واحد).
- حكايات شجرة التوت ـ قصص للأطفال ـ دمشق 1979
- أحاديث الأقنعة ـ قصص ـ دمشق 1992
- أحاديث الأقبية ـ قصص ـ دمشق 1997
- دراسات في الشعر العربي الحديث ـ نقد أدبي ـ بيروت 1980 ط2 جامعة وهران 1981
- جدل الحداثة في الشعر ـ نقد أدبي ـ بيروت 1985
- الوقائع والمصير ـ دراسة في أدب حسن صقر ـ دمشق 1994
- الآفاق القصية ـ دراسة في المعلقات ـ 1997
- زكي الأرسوزي الأب الروحي لحزب البعث ـ طوكيو 1999 (بالإنكليزية وبالاشتراك مع د. ماهر شريف، والباحث الياباني هيرو يوكي أؤياما. صدر عن معهد طوكيو لاقتصاديات البلدان النامية JETRO
- كوايدان ـ ترجمة عن الإنكليزية 1992 (حكايات شعبية يابانية)
- الشخصية اليابانية ـ دراسة ـ دمشق 1994
- حكايات شعبية يابانية ـ ترجمة عن الإنكليزية ـ 1995
- أحاديث النهار ـ قصص ـ دار الفارابي ـ بيروت 2004